المملكة العربيّة السعوديّة
وزارة المعارف
المكتبات المدرسيّة

معالم في الطريق

سيد قطب

م

دار الشروق

سيد قطب

معالم في الطريق

دار الشروق

الطبعة الشرعيّة السادسة

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيًا : داشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - برقيًا : شروق القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في الطريق

تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية ·· لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها ·· فهذا عرض للمرض وليس هو المرض ·· ولكن بسبب إفلاسها في عالم « القيم » التي يمكن ان تنمو الحياة الانسانية في ظلالها نموا سليما وتترقى ترقيا صحيحا · وهذا واضح كل الوضوح في العالم الغربي ، الذي لم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من « القيم » ، بل الذي لم يعد لديه ما يُقنع ضميره باستحقاقه للوجود ، بعدما انتهت « الديمقراطية » فيه الى ما يشبه الافلاس ، حيث بدأت تستعير – ببطء – وتقتبس من أنظمة المعسكر الشرقي وبخاصة في الانظمة الاقتصادية ! تحت اسم الاشتراكية !

كذلك الحال في المعسكر الشرقي نفسه ·· فالنظريات الجماعية وفي مقدمتها الماركسية التي اجتذبت في أول عهدها عددا كبيرا في الشرق – وفي الغرب نفسه – باعتبارها مذهبا يحمل طابع العقيدة ، قد تراجعت هي الاخرى تراجعا واضحا من ناحية « الفكرة » حتى لتكاد تنحصر الان في « الدولة » وأنظمتها ، التي تبعد بعدا كبيرا عن أصول المذهب ·· وهي على العموم تناهض طبيعة الفطرة البشرية ومقتضياتها ، ولا تنمو الا في بيئة محطمة ! أو بيئة قد ألفت النظام الدكتاتوري فترات طويلة ! وحتى في مثل هذه البيئات قد بدأ يظهر فشلها المادي الاقتصادي – وهو الجانب الذي

تقوم عليه وتتبجح به ـ فروسيا ـ التي تمثل قمة الانظمة الجماعية ـ تتناقض غلاتها بعد ان كانت فائضة حتى في عهود القياصرة ، وتستورد القمح والمواد الغذائية ، وتبيع ما لديها من الذهب لتحصل على الطعام بسبب فشل المزارع الجماعية وفشل النظام الذي يصادم الفطرة البشرية ٠

ولا بد من قيادة للبشرية جديدة !

إن قيادة الرجـل الغربي للبشرية قد اوشكت عـلى الزوال ٠٠ لا لأن الحضارة الغربية قد افلست ماديا او ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية ٠٠ ولكن لأن النظـام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدا مـن « القيم » يسمح له بالقيادة ٠

لا بد من قيادة تملك ابقاء وتنميـة الحضارة المادية التي وصلت اليها البشرية ، عن طريق العبقريـة الاوروبية في الابداع المادي ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدّة كاملـة ـ بالقياس الى ما عرفته البشرية ـ وبمنهج اصيل وايجابـي وواقعي في الوقت ذاته ٠

والاسلام ـ وحده ـ هو الذي يملك تلك القيم وهـذا المنهج ٠

لقد أدّت النهضة العلمية دورها ٠٠ هذا الدور الذي بدأت مطالعه مـع عصر النهضة في القـرن السادس عشر الميـلادي ، ووصلت الى ذروتها خلال القرنـين الثامن عشر والتاسع عشر ٠٠ ولم تعد تملك رصيدا جديدا ٠

كذلك أدّت « الوطنية » و « القومية » التي برزت في تلك الفترة ، والتجمعات الاقليمية عامة دورها خـلال هذه القرون ٠٠ ولم تعد تملك هي الاخرى رصيدا جديدا ٠

ثم فشلت الانظمة الفردية والانظمة الجماعية في نهاية المطاف ·

ولقد جاء دور « الاسلام » · ودور « الامة » في أشد الساعات حرجا وحيرة واضطرابا ·· جاء دور الاسلام الذي لا يتنكّر للابداع المادي في الارض ، لانه يعــدّه من وظيفــة الانسان الاولى منذ ان عهد الله اليه بالخلافة فــي الارض ، ويعتبره ـ تحت شروط خاصة ـ عبــادة لله ، وتحقيقــا لغاية الوجود الانساني ·

« واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة »
(سور البقرة : ٣٠)

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »
(الذاريات : ٥٦)

وجاء دور « الامــــة المسلمة » لتحقق مــــا اراده الله باخراجها للناس :

« كنتم خــير أمة أخرجت للنــــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ··· (آل عمران : ١٠)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ··· (سورة البقرة : ١٤٣) ·

***

ولكن الاسلام لا يملك ان يؤدي دوره الا أن يتمثــل في مجتمع ، أي أن يتمثل في أمة ·· فالبشريــــة لا تستمــع ـ وبخاصة في هذا الزمان ـ الى عقيــــدة مجردة ، لا تــرى مصداقها الواقعي في حياة مشهودة ·· و « وجود » الامــــة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة ·· فالأمــة المسلمة

ليست « أرضا » كان يعيش فيها الاسلام ٠ وليست « قوما » كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الاسلامي ٠٠ انما « الامة المسلمة » جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم واوضاعهم وانظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الاسلامي ٠٠٠ وهذه الامة ـ بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الارض جميعا ٠

ولا بد من « اعادة وجود » هذه « الامة » لكي يؤدي الاسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة اخرى ٠

لا بد من « بعث » لتلك الامة التي واراها ركام الاجيال وركام التصورات ، وركام الاوضاع ، وركام الانظمة ، التي لا صلة لها بالاسلام ، ولا بالمنهج الاسلامي ٠٠ وان كانت ما تزال تزعم انها قائمة فيما يسمى « العالم الاسلامي » !!!

وانا أعرف ان المسافة بين محاولة « البعث » وبين تسلم « القيادة » مسافة شاسعة ٠٠ فقد غابت الامة المسلمة عن « الوجود » وعن « الشهود » دهرا طويلا ٠ وقد تولت قيادة البشرية افكار اخرى وامم اخرى ، وتصورات اخرى وأوضاع اخرى فترة طويلة ٠ وقد ابدعت العبقرية الاوروبية في هذه الفترة رصيدا ضخما من « العلم » و « الثقافة » و « الانظمة » و « الانتاج المادي » ٠٠ وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته ، ولا تفرّط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة ! وبخاصة أن ما يسمى « العالم الاسلامي » يكاد يكون عاطلا من كل هذه الزينة !

ولكن لا بد ـ مع هذه الاعتبارات كلها ـ من « البعث الاسلامي » مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث

وبين تسلم القيادة . فمحاولة البعث الاسلامي هي الخطوة الاولى التي لا يمكن تخطيها !

***

ولكي نكون على بيّنة من الامر ، ينبغي أن ندرك ـ على وجه التحديد ـ مؤهلات هذه الامة للقيادة البشرية ، كي لا نخطيء عناصرها في محاولة البعث الاولى .

ان هذه الامة لا تملك الآن ـ وليس مطلوبا منها ـ ان تقدم للبشرية تفوقا خارقا في الابداع المادي ، يحني لها الرقاب ، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية .. فالعبقرية الاوروبية قد سبقته في هذا المضمار سبقا واسعا . وليس من المنتظر ـ خلال عدة قرون على الاقل ـ التفوق المادي عليها !

فلا بد اذن من مؤهل آخر ! المؤهل الذي تفتقده هذه الحضارة !

ان هذا لا يعني ان نهمل الابداع المادي . فمن واجبنا ان نحاول فيه جهدنا . ولكن لا بوصفه « المؤهل » الذي نتقدم به لقيادة البشرية في المرحلة الراهنة . انما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا . كذلك بوصفه واجبا يفرضه علينا « التصور الاسلامي » الذي ينوط بالانسان خلافة الارض ، ويجعلها ـ تحت شروط خاصة ـ عبادة لله ، وتحقيقا لغاية الوجود الانساني .

لا بد اذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية ـ غير الابداع المادي ـ ولن يكون هذا المؤهل سوى « العقيدة » و « المنهج » الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية ، تحت اشراف تصور آخر يلبّي حاجة الفطرة كما يلبّيها الابداع

المادي ، وأن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع انساني · أي في مجتمع مسلم ·

***

انّ العالم يعيش اليوم كله في « جاهلية » من ناحية الاصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وانظمتها · جاهلية لا تخفف منها شيئا هذه التيسيرات المادية الهائلة ، وهذا الابداع المادي الفائق !

هذه الجاهلية تقوم على اساس الاعتداء على سلطان الله فى الارض وعلى أخص خصائص الالوهية ·· وهي الحاكمية ·· انها تسند الحاكمية الى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض اربابا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الاولى ، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والانظمة والاوضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفيما لم **يأذن به**الله ·· فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده ·· وما مهانة « الانسان » عامة في الانظمة الجماعية ، وما ظلم « الافراد » والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار في النظم « الرأسمالية » الا أثرا من آثار الاعتداء على سلطان الله ، وانكار الكرامة التي قررها الله للانسان !

وفي هذا يتفرد المنهج الاسلامي ·· فالناس في كل نظام غير النظام الاسلامي ، يعبد بعضهم بعضا ــ في صورة من الصور ــ وفي المنهج الاسلامي وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقي من الله وحده ، والخضوع لله وحده ·

وهذا هو مفترق الطريق ·· وهذا كذلك هو التصور الجديد الذي نملك اعطاءه للبشرية ــ هو وسائر ما يترتب

عليه من آثار عميقة في الحياة البشرية الواقعية ـ وهذا هو الرصيد الذي لا تملكه البشرية ، لانــه ليس من « منتجات » الحضارة الغربية ، وليس من منتجـــات العبقرية الاوروبية ! شرقية كانت او غربية ٠

***

اننا ـ دون شك ـ نملك شيئا جديدا جـدّة كاملة ٠ شيئا لا تعرفه البشرية ٠ ولا تملك هي ان « تنتجه » !

ولكن هذا الجديد ، لا بد ان يتمثل ـ كما قلنا ـ فــي واقع عملي ٠ لا بد ان تعيش به أمة ٠٠ وهذا يقتضي عملية « بعث » في الرقعة الاسلامية هذا البعث الذي يتبعه ـ على مسافة ما بعيدة أو قريبة ـ تسلم قيادة البشرية ٠

فكيف تبدأ عملية البعث الاسلامي ؟

انه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي فــــي الطريق ٠ تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الاطنـــاب في ارجاء الارض جميعا ٠ تمضي وهي تزاول نوعا من العزلة من جانب ، ونوعا من الاتصال مــن الجانب الآخر بالجاهليـــة المحيطة ٠٠

ولا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من « معالم في الطريق » معالم تعرف منها طبيعـــة دورها ، وحقيقـــة وظيفتها ، وصلب غايتها ، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة ٠٠ كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الاطنــاب في الارض جميعا ٠٠ اين تلتقي مع الناس وأين تفترق ؟ مـا خصائصها هـــي وما خصائص الجاهلية من حولهـا ؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغـــة الاسلام وفيم تخاطبها ؟ ثم تعرف من أين تتلقى ـ في هذا كله ـ وكيف تتلقى ؟

هذه المعالم لا بـــد ان تقام من المصدر الاول لهـــذه العقيدة ·· القرآن ·· ومن توجيهاتـــه الاساسية ، ومـــن التصور الذي انشأه في نفوس الصفوة المختارة ، التي صنع الله بها في الارض ما شاء ان يصنع ، والتي حولت خط سير التاريخ مرة الى حيث شاء الله ان يسير ·

***

لهذه الطليعـــة المرجـــوة المرتقبة كتبت « معالـــم في الطريق » · منها أربعة فصول مستخرجة من كتـــاب « فـــي ظلال القرآن » مع تعديلات واضافات مناسبة لموضوع كتاب المعالم (١) · ومنهـــا ثمانية فصول ـ غير هـــذه التقدمة ـ مكتوبة في فترات حسبمـــا اوحت به اللفتات المتواليـــة الى المنهج الرباني الممثل في القرآن الكريم ·· وكلها يجمعها ـ على تفرقها ـ انها معالم في الطريق ، كما هو الشأن في معالم كل طريق ! وهي في مجموعها تمثل المجموعـــة الاولى من هـــذه « المعالم » والتي أرجـــو ان تتبعهـــا مجموعـــة اخـــرى أو مجموعات ، كلما هداني الله الى معالم هذا الطريق !

وبالله التوفيق ·

---

(١) « طبيعة المنهج القرآني » ·· و « التصور الاسلامي والثقافـــة » و « الجهاد في سبيل الله » و « نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » ·

جيلٌ قرآنيٌّ فريد

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي ان يقف امامهـــا اصحاب الدعوة الاسلامية في كل ارض وفي كل زمان · وان يقفـــوا امامها طويلا · ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهـــج الدعوة واتجاهها ·

لقد خرّجت هذه الدعوة جيلا مـــن الناس ـ جيـــل الصحابة رضوان الله عليهم ـ جيلا مميزا في تاريخ الاسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه · ثم لم تعد تخرّج هذا الطراز مرة اخرى ·· نعم ُوجد افراد من ذلك الطراز عـــلى مـدار التاريخ · ولكن لم يحدث قط أن تجمّع مثـــل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الاولى من حيـاة هذه الدعوة ·

هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغي الوقـــوف امامه طويلا ، لعلنا نهتدي الى سرّه ·

ان قرآن هـــذه الدعوة بين ايدينا ، وحديث رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهديه العملـــي ، وسيرتـــه الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الاول ، الذي لم يتكرر في التاريخ ·· ولم يغب الا شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهـــل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله ـ صلى الله عليـــه

وسلم ـ حتميا لقيام هذه الدعوة ، وايتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكّل اليها امر الناس في هذه الارض ، الى آخر الزمان ..

ولكن الله ـ سبحانه ـ تكفل بحفظ الذكر، وعلم ان هذه الدعوة يمكن ان تقوم بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمكن ان تؤتي ثمارها . فاختاره الى جواره بعد ثلاثة وعشرين عاما من الرسالة ، وابقى هذا الدّين من بعده الى آخر الزمان .. وإذن فان غيبة شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها .

***

فلنبحث اذن وراء سبب آخر . لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الاول ، فلعل شيئا قد تغير فيه . ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه ، فلعل شيئا قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الاول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهديه الا أثرا من آثار ذلك النبع . فعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها ـ عن ُخلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : « كان ُخلقه القرآن » (١) .

كان القرآن وحده اذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لانه لم يكن للبشرية يومها حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا

---

(١) اخرجه النسائي .

مؤلفات ، ولا دراسات ٠٠ كـــلا ! فقد كانـــت هنـــاك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال اوروبا تعيش عليه ، او على امتداده ٠ وكانت هناك مخلفـــات الحضـــارة الاغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهـــو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حـــتى اليوم ٠ وكـــانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها واساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلـــك ٠ وحضارات اخـــرى قاصية ودانية: : حضارة الهنـــد وحضارة الصين الخ ٠ وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة ٠٠ فلم يكن اذن عـــن فقر في الحضارات العالميـــة والثقافات العالمية يقصُر ذلـــك الجيل على كتاب الله وحده ٠٠ في فترة تكونه ٠٠ وانما كان ذلك عن « تصميم » مرسوم ، ونهج مقصود ٠ يدل على هـــذا القصد غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد رأى في يد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صحيفـــة مـــن التوراة ٠ وقوله : « انه والله لو كـــان موسى حياً بـــين أظهركم ما حلّ له الا ان يتبعني » (١) ٠

واذن فقد كـــان هناك قصد من رسول الله ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ ان يقصُر النبع الذي يستقـــي منـــه ذلك الجيل ٠٠ في فترة التكون الاولى ٠٠ على كتاب الله وحده ، لتخلص نفوسهم له وحده ٠ ويستقيم عودهم على منهجـــه وحده ٠ ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يستقي من نبع آخر ٠

كان رسول الله ـ صـــلى الله عليه وسلم ـ يريـــد صنع جيل خالص القلب ٠ خالص العقل ٠ خالص التصور ٠

---

(١) رواه الحافظ ابو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر ٠

خالص الشعور • خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الالهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم •

ذلك الجيل استقى اذن من ذلك النبع وحده • فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد •• ثم ما الذي حدث ، اختلطت الينابيع ! صبت في النبع الذي استقت منه الاجيال التالية فلسفة الاغريق ومنطقهم ، واساطير الفرس وتصوراتهم ، واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات • واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والاصول ايضا • وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الاجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل ابدا •

وما من شك ان اختلاط النبع الاول كان عاملا اساسياً من عوامل ذلك الاختلاف البيّن بين الاجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد •

***

هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع • ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد ••

انهم – في الجيل الاول – لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع • لم يكن احدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف الى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته • انما كان يتلقى القرآن ليتلقى امر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الامر ليعمل

به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان « الامر اليومي » ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن احدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس انه انما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه . (١) .

هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ .. كان يفتح لهم من القرآن آفاقا من المتاع وآفاقا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا اليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم الى منهج واقعي ، والى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الاذهان ولا في بطون الصحائف ، انما تتحول آثارا وأحداثا تحوّل خط سير الحياة .

ان هذا القرآن لا يمنح كنوزه الا لمن يُقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . انه لم يجىء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب ادب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ ـ وان كان هذا كله من محتوياته ـ انما جاء ليكون منهاج حياة. منهاجا إلهيا خالصا . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقا ، يتلو بعضه بعضا :

« وقرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .. (الاسراء : ١٠٦) .

لم ينزل هذا القرآن جملة ، انما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطرد في الافكار والتصورات ،

---

(١) ذكره ابن كثير في مقدمة التفسير .

والنمو المطرد في المجتمع والحياة ، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية • وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم ، وتصوّر لهم ما هم فيه من الامر ، وترسم لهم منهج العمل في الموقف ، وتصحح لهم اخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم ، وتعرّفه لهم بصفاته المؤثرة في الكون ، فيحسون حينئذ انهم يعيشون مع الملأ الاعلى ، تحت عين الله ، في رحاب القدرة • ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهج الالهي القويم •

منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الاول • ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرّج الاجيال التي تليه • وما من شك ان هذا العامل الثاني كان عاملا اساسيا كذلك في اختلاف الاجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد •

***

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل •

لقد كان الرجل حين يدخل في الاسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية • كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها الى الاسلام انه يبدأ عهدا جديدا ، منفصلا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية • وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس ان كل هذا رجس لا يصلح للاسلام ! وبهذا الاحساس كان يتلقى هدي الاسلام الجديد ، فاذا غلبته نفسه مرة ، واذا اجتذبته عاداته مرة ، واذا ضعف عن تكاليف الاسلام مرة •• شعر في الحال بالاثم والخطيئة ،

وادرك في قرارة نفسه انه في حاجة الى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد ان يكون على وفق الهدي القرآني ·

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في اسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيا ببيئته الاسلامية · حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر ·

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعرفها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية الى تصور الاسلام عن الحياة والوجود · وينشأ من الانضمام الى التجمع الاسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته ·

وكان هذا مفرق الطريق ، وكان بدء السير في الطريق الجديد ، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي ، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه · ولم يكن هناك الا ما يلقاه المسلم من اذى وفتنة ، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى ، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي ، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل ·

نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الاسلام أو اظلم · كل ما حولنا جاهلية ·· تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم · حتى الكثير مما نحسبه ثقافة اسلامية ،

ومراجع اسلامية ، وفلسفة اسلامية ، وتفكيرا اسلاميـــا ٠٠ هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!

لذلك لا تستقيم قيم الاسلام في نفوسنا ، ولا يتضح تصور الاسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيـــل ضخم مـــن الناس من ذلك الطراز الذي انشأه الاسلام اول مرة ٠

فلا بد اذن ـ في منهج الحركة الاسلامية ـ ان نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كـــل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها ٠ لا بد ان نرجع ابتداء الى النبـع الخالص الذي استمد منه اولئك الرجال ،٠ النبـــع المضمون انه لم يختلط ولم تشبه شائبة ٠ نرجع اليه نستمـــد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الانساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ، وجود الله سبحانه ٠٠ ومن ثم نستمد تصوراتنا للحيـــاة ، وقيمنا واخلاقنا ، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة ٠

ولا بد ان نرجع اليه ـ حين نرجع ـ بشعـــور التلقي للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتـــاع ٠ نرجع اليه لنعرف ماذا يطلب منـــا ان نكون ، لنكون ٠ وفي الطريـــق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائـــع فـــي القرآن ، وبمشاهد القيامة في القرآن ٠٠ وبالمنطق الوجداني في القرآن ٠٠ وبسائر ما يطلبه اصحاب الدراسة والمتاع ٠ ولكننا سنلتقي بهذا كله دون ان يكون هو هدفنا الاول ٠ ان هدفنا الاول أن نعرف : ماذا يريد منا القرآن ان نعمل ؟ مـــا هو التصور الكلي الذييريد منا ان نتصور ؟ كيف يريـــد القرآن ان يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد ان تكـــون اخلاقنا واوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة ؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمـع الجاهلي

والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية .. في خاصة نفوسنا .. ليست مهمتنا ان نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا ان ندين بالولاء له ، فهو بهذه الصفة .. صفة الجاهلية .. غير قابل لان نصطلح معه . ان مهمتنا ان نغيّر من أنفسنا أولا لنغير هذا المجتمع أخيرا .

ان مهمتنا الاولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من اساسه . هذا الواقع الذي يصطدم اصطداما اساسيا بالمنهج الاسلامي ، وبالتصور الاسلامي ، والذي يحرمنا بالقهر والضغط ان نعيش كما يريد لنا المنهج الالهي ان نعيش .

ان اولى الخطوات في طريقنا هي ان نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته . وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق . كلا ! اننا واياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فاننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلتقي في هذا عنتاً ومشقة، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا مخيرين اذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الاول الذي أقر الله به منجه الالهي ، ونصره على منهج الجاهلية .

وانه لمن الخير ان ندرك دائما طبيعة منهجنا ، وطبيعة موقفنا ، وطبيعة الطريق الذي لا بد ان نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..

طبيعة المنهج القرآني *

ظل القرآن المكّي ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدّثه فيها عن قضية واحدة · قضية واحدة لا تتغير ، ولكن طريقة عرضَها لا تكاد تتكرر · ذلك الاسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة ، حتى لكأنما يطرقها للمرة الاولى ·

لقد كان يعالج القضية الاولى ، والقضية الكبرى ، والقضية الاساسية ، في هذا الدين الجديد ·· قضية العقيدة ·· ممثلة في قاعدتها الرئيسية ·· الالوهية والعبودية ، وما بينهما من علاقة ·

لقد كان يخاطب بهذه الحقيقة « الانسان » ·· الانسان بما انه انسان ·· وفي هذا المجال يستوي الانسان العربي في ذلك الزمان والانسان العربي في كل زمان ، كما يستوي الانسان العربي وكل انسان ، في ذلك الزمان وفي كل زمان !

انها قضية « الانسان » التي لا تتغير ، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره · قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الاحياء ، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الاحياء · وهي قضية لا تتغير ، لأنها قضية الوجود والانسان ·

(*) ـ مستخرج من كتاب : « في ظلال القرآن » من التعريف بسورة الانعام في الجزء السابع من الطبعة الثانية المنقحة مع اضافات قليلة ·

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للانسان سر وجـوده ووجود هذا الكون من حوله ·· كان يقول له : من هـو ؟ ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ والى اين يذهب في نهاية المطاف ؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذي يذهب به ، وما مصيره هناك ؟ وكان يقول له : ما هـــذا الوجود الذي يحسه ويراه ، والذي يحس ان وراءه غيبـا يستشرفه ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالاسرار ؟ مـــن ذا يدبره ؟ ومن ذا يحوره ؟ ومن ذا يجدد فيـــه ويغير عـــلى النحو الذي يراه ؟ ·· وكان يقول له كذلك : كيف يتعامـــل مع خالق هذا الكون ، ومع الكون ايضا ، كما يبين له : كيف يتعامل العباد مع العباد ؟

وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود « الانسان » · وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الازمان ·

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاما كاملة في تقريـــر هـــذه القضية الكبرى ، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الانسان الا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات ·

ولم يتجاوز القرآن المكي هـــذه القضية الاساسية الى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظـــام الحياة ، الا بعد ان علم الله انها قد استوفت ما تستحقه من البيان ، وانها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصبة المختارة من بني الانسان ، التي قدّر الله أن يقوم هـــذا الدين عليها ، وأن تتولى هـــي انشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الديـــن ·

***

واصحاب الدعـــوة الى دين الله ، والى اقامة النظـــام

الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحيـــاة ، خليقون ان يقفوا طويلا امام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما لتقرير هذه العقيدة ، ثم وقوفـه عندها لا يتجاوزها الى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليهـا ، والتشريعات التي تحكـم المجتمع المسلـم الـذي يعتنقها ·

لقد شاءت حكمة الله ان تكون قضيـة العقيدة هـي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الاول للرسالة ، وأن يبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اولى خطواتـه في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا : ان لا إله الا الله ، وأن يمضي في دعوته يعرّف الناس بربهم الحق ، ويعبّدهم لـه دون سواه ·

ولم تكن هذه ـ في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب ـ هي أيسر السبل الى قلوب العرب ! فلقد كانـوا يعرفون من لغتهم معنى « الـه » ومعنـى : « لا إلـه إلا الله » · كانوا يعرفون ان الالوهية تعني الحاكمية العليا ·· وكانـوا يعرفون ان توحيد الالوهية وافراد الله ـ سبحانه ـ بهـا ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخـة القبائل والامراء والحكـام ، وردّه كله الى الله ·· السلطان عـلى الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيـات الحياة ، والسلطان في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الارواح والابدان ·· كانوا يعلمون ان « لا إله الا الله » ثورة عـلى السلطان الارضي الذي يغتصب اولى خصـائص الالوهية ، وثورة على الاوضاع التي تقوم على قاعدة مـن هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة مـن عندها لم يأذن بها الله ·· ولم يكن يغيب عن العرب ـ وهم يعرفون لغتهم جيدا ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة ـ « لا

إله الا الله » ـ ماذا تعني هـــذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هـــذه الدعوة ـ او هذه الثورة ـ ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوهـــا هذه الحرب التي يعرفها الخاص والعام ..

فلمَ كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؟ ولِم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟

***

لقد بُعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهـــذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في ايدي العرب، انما هي في ايدي غيرهم من الاجناس !

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم ، يحكمها امراء عرب من قِبَل الروم ، وبلاد اليمـن كلها في الجنوب خاضعة للفرس ، يحكمها امراء عرب من قبل الفرس ، وليست في ايدي العرب الا الحجاز وتهامة ونجد ، ومـــا اليها مـــن الصحارى القاحلة التي تتناثر فيهـــا الواحات الخصبة هنـــا وهناك !

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق الامـين الـــذي حكّمـــه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الاسود ، وارتضوا حكمـــه ، منذ خمسة عشر عاما قبل الرسالة ، والذي هو في الذؤابـــة من بني هاشم أعلى قريش نسبا .. انه كـــان في استطاعته ان يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب التـــي أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات ، وتوجيههـــا وجهة قومية لاستخلاص ارضها المغتصبة من الامبراطوريات المستعمرة .. الرومان في الشمال والفرس فـــي الجنوب .. واعـــلاء راية

العربية والعروبة ، وانشاء وحدة قومية في كل ارجاء الجزيرة .

وربما قيل : انه لو دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة ، بدلا من ان يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة !

وربما قيل : ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خليقا ـ بعد ان يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد ان يولوه فيهم القيادة والسيادة ، وبعد استجماع السلطان في يديه ، والمجد فوق مفرقيه ـ ان يستخدم هذا كله في اقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ، في تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد ان عبّدهم لسلطانه البشري !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ، لم يوجّه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التوجيه ! انما وجهه الى ان يصدع بلا إله الا الله ، وان يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ ان الله ـ سبحانه ـ لا يريد ان يعنّت رسوله والمؤمنين معه . انما هو ـ سبحانه ـ يعلم ان ليس هذا هو الطريق ، ليس الطريق ان تخلص الارض من يد طاغوت روماني او طاغوت فارسي ، الى يد طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! ان الارض لله ، ويجب ان تخلص لله ، ولا تخلص لله الا ان ترتفع عليها راية : « لا إله الا الله » . وليس الطريق ان يتحرر الناس في هذه الارض من طاغوت روماني او فارسي ، الى طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! ان الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيدا لله وحده الا أن ترتفع راية : « لا إله الا الله » ـ لا إله الا الله كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته ، : لا

حاكمية الا الله ، ولا شريعة الا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن « الجنسية » التي يريدها الاسلام للناس هي جنسية العقيدة ، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الاجناس والالوان تحت راية الله ٠

وهذا هو الطريق ٠٠

***

و'بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الدين ، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة ٠ قلة قليلة تملك المال والتجارة ، وتتعامل بالر"با فتضاعف تجارتها ومالها ٠ وكثرة كثيرة لا تملك الا الشظف والجوع ٠ والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ، وجماهير كثيرة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يرفعها راية اجتماعية ، وان يثيرها حربا على طبقة الاشراف ، وان يطلقها دعوة تستهدف تعديل الاوضاع ، ورد أموال الاغنياء على الفقراء !

وربما قيل : انه لو دعا يومها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربي صفّين : الكثرة الغالبة مع الدعوة الجديدة في وجه طغيان المال والشرف والجاه ، والقلة القليلة مع هذه الموروثات ، بدلا من ان يقف المجتمع كله صفاً في وجه « لا إله الا الله » التي لم يرتفع الى افقها في ذلك الحين الا الافذاذ من الناس !

وربما قيل : ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان

خليقا بعد ان تستجيب له الكثرة ، وتوليه قيادها ، فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها ، ان يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في اقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبّدهم لسلطانه البشري !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه ..

لقد كان الله ـ سبحانه ـ يعلم ان هذا ليس هو الطريق .. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ، يرد الامر كله لله ، ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة التوزيع ، ومن تكافل الجميع ، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه سواء انه ينفذ نظاما شرعه الله ، ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بالطمع ، ولا تمتلىء قلوب بالحقد ، ولا تسير الامور كلها بالسيف والعصا ، وبالتخويف والارهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الارواح ، كما يقع في الاوضاع التي تقوم على غير « لا اله الا الله » .

***

وُبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمستوى الاخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الاسفل في جوانب منه شتى ـ الى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية .

كان التظالم فاشيا في المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر « زهير بن أبي سلمى » :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدّم ، ومن لا يظلم الناس يُظلمِ

ويعبر عنه القول المتعارف في الجاهلية : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ، ومن مفاخره كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته .. كالذي يقوله طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كمُيت متى ما تُعلَ بالماء تزبد
وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبذلي وانفاقي طريفي وتالدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها وأفردت افراد البعير المعبّد

. . . . .

وكانت الدعارة ـ في صور شتى ـ من معالم هذا المجتمع ـ شأنه شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث ـ كالذي روعه عائشة رضي الله عنها :

« ان النكاح في الجاهلية كان على اربعة انحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم .. يخطب الرجل الى الرجل وليّته او بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لأمرأته ـ اذا طهرت من طمثها ـ : ارسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ابدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فاذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد ان تضع

حملها ، أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من امركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع ان يمتنع به الرجل ·· والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ·· وهن البغايا ·· كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن ارادهن دخل عليهن ، فاذا حملت احداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطه ، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك » (١) ·

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يعلنها دعوة اصلاحية ، تتناول تقويم الاخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس ·

وربما قيل : انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان واجدا وقتها ـ كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة ـ نفوسا طيبة يؤذيها هذا الدنس ، وتأخذها الاريحية والنخوة لتلبية دعوة الاصلاح والتطهر ·

وربما قال قائل : أنه لو صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لاستجابت له ـ في اول الامر ـ جمهرة صالحة ، تتطهر اخلاقها ، وتزكوا ارواحها ، فتصبح اقرب الى قبول العقيدة وحملها ، بدلا من ان تثير دعوة « لا اله الا الله » المعارضة القوية منذ اول الطريق ·

ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم ان ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم ان الاخلاق لا تقوم الا على اساس من

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب النكاح ·

عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم ، كما تقرر السلطة التي تستند اليها هذه الموازين والقيم ، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة ، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين • وانه قبل تقرير هذه العقيدة ، وتحديد هذه السلطة تظل القيم كلها متأرجحة وتظل الاخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ، بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقررت العقيدة ـ بعد الجهد الشاق ـ وتقررت السلطة التي ترتكن اليها هذه العقيدة •• لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده •• لما تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء •• لما تقررت في القلوب « لا إله الا الله » •• صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون •• تطهرت الارض من « الرومان والفرس » •• لا ليتقرر فيها سلطان « العرب » • ولكن ليتقرر فيها سلطان « الله » •• لقد تطهرت من سلطان « الطاغوت » كله •• رومانيا ، وفارسيا ، وعربيا ، على السواء •

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته • وقام « النظام الاسلامي » ، يعدل بعدل الله ، ويزن بميزان الله ، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ، ويسميها راية « الاسلام » • لا يقرن اليها اسما آخر ، ويكتب عليها : « لا اله الا الله » !

وتطهرت النفوس والاخلاق ، وزكت القلوب والارواح ، دون ان يحتاج الامر حتى للحدود والتعازير التي شرعها الله ـ الا في الندرة النادرة ـ لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر ، ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياة والخوف من غضبه وعقابه ، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات •

وارتفعت البشرية في نظامها ، وفي اخلاقها ، وفي

حياتها كلها ، الى القمة السامقة التي لم ترتفع اليها من قبل قط ، والتي لم ترتفع اليها من بعد الا في ظل الاسلام .

ولقد تم هذا كله لأن الذين اقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع واحكام ، كانوا قد اقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على اقامة هذا الدين وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان .. ولا حتى لهذا الدين على ايديهم .. وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا .. وعدا واحدا هو الجنة . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه اصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان ، وهو : « لا اله الا الله » !

فلما ان ابتلاهم الله فصبروا ، ولما ان فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ، ولما ان علم الله منهم انهم لا ينتظرون جزاء في هذه الارض ـ كائنا ما كان هذا الجزاء ، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم ، وقيام هذا الدين في الارض بجهدهم ـ ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا ارض ، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت .. لما ان علم الله منهم ذلك كله ، علم انهم قد اصبحوا ـ اذن ـ امناء على هذه الامانة الكبرى .. امناء على العقيدة ، التي يتفرد فيها الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية في القلوب والضمائر ، وفي السلوك والشعائر ، وفي الارواح والأموال ، وفي الأوضاع والأحوال .. وأمناء على السلطان الذي يوضع في ايديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ، وعلى عدل الله يقيمونه ، دون ان يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ، ولا لعشيرتهم ، ولا لقومهم ، ولا لجنسهم . انما يكون السلطان الذي في ايديهم لله ، ولدينه وشريعته ،

لانهم يعلمون انه من الله ، هو الذي آتاهم اياه .

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، الا ان تبدأ الدعوة ذلك البدء . والا ان ترفع الدعوة هذه الراية وحدها .. راية لا اله الا الله .. ولا ترفع معها سواها . والا ان تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ، المبارك الميسر في حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله ، لو ان الدعوة بدأت خطواتها الاولى دعوة قومية ، أو دعوة اجتماعية ، أو دعوة اخلاقية .. او رفعت اي شعار الى جانب شعارها الواحد : « لا اله الا الله » .

***

ذلك شأن القرآن المكي كله في تقرير : « لا اله الا الله » في القلوب والعقول ، واختيار هذا الطريق — على مشقته في الظاهر — وعدم اختيار السبل الجانبية الاخرى ، والاصرار على هذا الطريق .

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها ، دون التطرق الى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها ، فذلك كذلك مما ينبغي ان يقف امامه اصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية .

ان طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الالوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الاصل الكبير .. وكما ان الشجرة الضخمة الباسقة ، الوارفة المديدة الظلال ، المتشابكة الاغصان ، الضاربة في الهواء .. لا بد لها ان تضرب بجذورها في التربة على اعماق بعيدة ، وفي مساحات واسعة ، تناسب

ضخامتها وامتدادها في الهواء ٠٠ فكذلك هذا الدين ٠٠ ان نظامه يتناول الحياة كلها ، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ، وينظم حياة الانسان ـ لا في الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك في الدار الآخرة ، ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ، ولا في المعاملات المادية الظاهرة وحدها ولكن كذلك في اعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا ـ فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية ، ولا بد له اذن من جذور واعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار ايضا ٠٠

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ، يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها ٠٠ ضرورة من ضروريات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال ، والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء والضارب من جذورها في الاعماق ٠

ومتى استقرت عقيدة : « لا إله الا الله » في اعماقها الغائرة البعيدة ، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه « لا اله الا الله » ، وتعين انه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة ، واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام ، حتى قبل ان تعرض عليها تفصيلاته ، وقبل ان تعرض عليها تشريعاته ٠ فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الايمان ٠٠ وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس ـ فيما بعد ـ تنظيمات الاسلام وتشريعاته بالرضى والقبول ، لا تعترض على شيء منه فور صدوره اليها ، ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له ٠٠ وهكذا ابطلت الخمر ، وابطل الربا ، وابطل الميسر ، وابطلت العادات الجاهلية كلها ٠٠ ابطلت بآيات من القرآن ، أو كلمات من الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما الحكومات الارضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها، ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطاتها ، ودعايتها واعلامها ، فلا تبلغ الا أن تضبط الظاهر من المخالفات ، بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات (١) !

***

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم • ان هذا الدين منهج عملي حركي جاد •• جاء ليحكم الحياة في واقعها ، ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره •• يقره ، او يعدله ، أو يغيره من أساسه •• ومن ثم فهو لا يشرّع الا لحالات واقعة فعلا ، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده ••

انه ليس « نظرية » تتعامل مع « الفروض » ! •• انه « منهج » ، يتعامل مع « الواقع » ! •• فلا بد اولا ان يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة : ان لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست الا لله ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ، ويرفض شرعية اي وضع لا يقوم على هذه القاعدة ••

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج الى تنظيم والى تشريع •• وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين أصلا لغيرها من النظم والشرائع ••

(١) يراجع كيف حرم الله الخمر في الجزء الخامس من الطبعة المنقحة من كتاب : « في ظلال القرآن » ص ٧٨ ـ ص ٨٥ • وكيف عجزت اميركا عن ذلك في كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد ابي الحسن الندوي منقولا عن كتاب (تنقيحات) للسيد ابي الاعلى المودودي •

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من سلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع حتى يكون للنظام هيبته ، ويكون للشريعة جديتها .. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من واقعية تقتضي الانظمة والشرائع من فورها ..

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله .. ومن ثم لم ينزّل الله لهم في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ، وانما نزّل لهم عقيدة ، وخلقاً منبثقا من هذه العقيدة بعد استقرارها في الاعماق البعيدة.. فلما ان صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان ، تنزلت عليهم الشرائع ، وتقرر لهم النظام الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ، والذي تكفل له الدولة بسلطاتها الجدية النفاذ .

ولم يشأ الله ان ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ، ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ! ان هذه ليست طبيعة هذا الدين !.. انه أشد واقعية من هذا واكثر جدية !.. انه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا .. انما يواجه الواقع حين يكون واقع مجتمع مسلم مستسلم لشريعة الله رافض لشريعة سواه بحجمه وشكله وملابساته وظروفه ، ليشرع له ، وفق حجمه وشكله وملابساته وظروفه .

والذين يريدون من الاسلام اليوم ان يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب نظام ، وان يصوغ تشريعات للحياة .. بينما ليس على وجه الارض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها ، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه .. الذين يريدون من

الاسلام هذا ، لا يدركون طبيعة هـذا الدين ، ولا كيف يعمل في الحياة .. كما يريد له الله ..

انهم يريدون منه ان يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية ، ومناهج بشرية ، ويحاولون ان يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم ، رغبات انما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة .. يريدون منه ان يصوغ نفسه في قالب نظريات وفروض ، تواجه مستقبلا غير موجود .. والله يريد لهذا الدين ان يكون كما اراده .. عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير ، عقيدة مقتضاها الا يخضع الناس الا لله ، وألا يتلقوا الشرائع الا منه دون سواه .. وبعد ان يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان الفعلي في مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

هذا ما يريده الله لهذا الدين .. ولن يكون الا ما يريده الله ، مهما كانت رغبات الناس !

كذلك ينبغي أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس لاعادة انشاء هـذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا الى اعتناق العقيدة ـ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ! ـ يجب أن يعلموهم أن الاسلام هو « اولا » اقرار عقيدة : « لا اله الا الله » ـ بمدلولها الحقيقي ، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هـذا الحق لأنفسهم ، اقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، واقرارها في أوضاعهم وواقعهم ..

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس الى الاسلام ، كانت هي أساس دعوتهم الى الاسلام اول مرة .. هـذه

الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة ‥ فاذا دخل في هذا الدين ـ بمفهومه هذا الاصيل ـ عصبة من الناس ‥ فهذه العصبة هي التي يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم » ‥ المجتمع الذي يصلح لمزاولة النظام الاسلامي في حياته الاجتماعية ، لأنه قرر بينه وبين نفسه ان تقوم حياته كلها على هذا الاساس ، والا يحكم في حياته كلها الا الله ٠

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض اسس النظام الاسلامي عليه ، كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية ، في اطار الاسس العامة للنظام الاسلامي ‥ فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامي الواقعي العملي الجاد ٠

ولقد يخيل لبعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الرباني القويم ، المؤسس على حكمة العليم الحكيم ، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة ‥ نقول : لقد يخيل لبعض هؤلاء ان عرض اسس النظام الاسلامي ـ بل التشريعات الاسلامية كذلك ـ على الناس ، مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس في هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذي كان يمكن ان يقترحه المقترحون : ان تقوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أولها تحت راية قومية ، او راية اجتماعية ، او راية اخلاقية ، تيسيرا للطريق !

ان القلوب يجب ان تخلص اولا لله ، وتعلن عبوديتها له وحده ، بقبول شرعه وحده ، ورفض كل شرع آخر غيره ‥ من ناحية المبدأ ‥ قبل ان تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

ان الرغبة يجب ان تنبثق من اخلاص العبودية لله ، والتحرر من سلطان سواه ، لا من أن النظام المعروض عليها ·· في ذاته ·· خير مما لديها من الانظمة في كذا وكذا على وجه التفصيل ·

ان نظام الله خير في ذاته ، لانه من شرع الله ·· ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله ·· ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة · ان قاعدة الدعوة ان قبول شرع الله وحده ايا كان ، ورفض كل شرع غيره ايا كان ، هو ذاته الاسلام ، وليس للاسلام مدلول سواه ، فمن رغب في الاسلام ابتداء فقد فصل في القضية ، ولم يعد بحاجة الى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته ·· فهذه احدى بديهيات الايمان!

***

وبعد ، فلا بد ان نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما ·· انه لم يعرضها في صورة « نظرية » ولا في صورة « لاهوت » ! ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله ما يسمى « علم التوحيد » !

كلا ! لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة « الانسان » بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وايحاءات ·· كان يستنقذ فطرته من الركام ، ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ، ويفتح منافذ الفطرة ، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها ·

هذا بصفة عامة ·· وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية ·· كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة في نفوس آدمية حاضرة واقعة ·· ومن ثم لم يكن شكل « النظرية » هو الشكل

الذي يناسب هذا الواقع الخاص . انما هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية .. ولم يكن الجدل الذهني ـ القائم على المنطق الشكلي ـ الذي سار عليه في العصور المتأخرة علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك .. فلقد كان القرآن يواجه « واقعا » بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ، ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع .. وكذلك لم يكن « اللاهوت » هو الشكل المناسب . فان العقيدة الاسلامية ، ولو أنها عقيدة ، الا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ، ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الابحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن ، وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة ، يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وأخلاقها وواقعها .. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا في صورة « نظرية » ولا في صورة « لاهوت » ، ولا في صورة « جدل كلامي » .. ولكن في صورة تجمع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة ، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها ، وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي ، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور ، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها .. كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي ، وترجمة حية له .. وهذا هو منهج الاسلام الذي يمثل طبيعته كذلك .

وانه لمن الضروري لاصحاب الدعوة الاسلامية ان يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بيناه . ذلك ليعلموا ان مرحلة بناء العقيدة التي طالت

في العهد المكي على هـــذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الاسلامية ، والبـــناء الواقعي للجماعة المسلمة • لم تكن مرحلة تلقّي « النظريـة » ودراستهـــا ! ولكنها كانـت مرحلة البـــناء القاعدي للعقيدة وللجماعـــة وللحركة وللوجود الفعلي معـــا •• وهكذا ينبغي أن تكـــون كلما أريد اعادة هذا البناء مرة أخرى •

هكذا ينبغي ان تطـــول مرحلة بنـــاء العقيدة ، وان تتم خطوات البـــناء على مهل ، وفي عمـــق وتثبت •• ثـم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيـــدة ، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة ـ أولا بأول ـ فـــي صورة حية ، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي وتجمع حركي ، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عـــن نمو العقيدة ذاتها ، ومتمثلة في حركة واقعية تواجـــه الجاهلية ، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ، لتتمثل العقيدة حية ، وتنمو نموا حيا في خضم المعركة •

وخطأ أي خطأ ـ بالقياس الى الاسلام ـ أن تتبلـــور العقيدة في صورة « نظرية » مجردة للدراسة الذهنيـة •• المعرفية الثقافية •• بل خطر أي خطر كذلك •

ان القرآن لم يقض ثلاثة عشر عامـــا كاملة في بنـــاء العقيدة بسبب انه كان يتنزل للمرة الاولى •• كلا ! فلو أراد الله لأنزل هـــذا القرآن جملة واحـــدة ، ثم ترك اصحابـــه يدرسونه ثلاثة عشر عاما ، أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا « النظرية الاسلامية » •

ولكن الله ـ سبحانـه ـ كان يريد امرا آخر ، كـــان يريد منهجا معينا متفردا • كان يريد بناء جماعـــة وبنـــاء حركة وبناء عقيدة في وقت واحد •• كان يريد ان يبنـــي

الجماعة والحركة بالعقيدة ، وان يبني العقيـــدة بالجماعـة والحركة ·· كان يريد ان تكون العقيدة هي واقع الجماعـــة الحركي الفعلي ، وان يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة ·· وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن بنـــاء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة ، فلم يكن هنالك بـد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقـــه بناء النفوس والجماعة ·· حتى اذا نضج التكوين العقيـــدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج ·

***

هذه هي طبيعة هـــذا الدين ـ كما تستخلص من منهج القرآن المكي ـ ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ، وألا نحـاول تغييرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة امام اشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الامة المسلمـــة أول مرة ، وبها يصنع الامة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد اخراج الامة المسلمة للوجود كما اخرجها الله اول مرة ·

يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معا ، في تحويل العقيدة الاسلامية الحية التي تحب أن تتمثل في واقـع نام حي متحرك ، وفي تجمع عضوي حركي ·· تحويلهـــا عن طبيعتها هذه الى « نظريـــة » للدراسة والمعرفة الثقافيـــة ، لمجرد أننا نريـــد أن نواجـــه النظريات البشرية الهزيلـــة بـ « نظرية اسلامية » ·

ان العقيدة الاسلامية تحب أن تتمثل في نفوس حية ، وفي تنظيم واقعي ، وفي تجمع عضوي ، وفـــي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها ـ بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل ان تدخـل العقيدة الى نفوسهم ، وتنتزعها مـن الوسط الجاهلي

ـ وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ـ ومن الحياة ايضا ـ مساحة أضخم وأوسع وأشمل مما تشغله « النظرية » • وتشمل ـ فيما تشمل ـ مساحة النظرية ومادتها، ولكنها لا تقتصر عليها •

ان التصور الاسلامي للالوهية ، وللوجود الكوني ، وللحياة ، وللانسان •• تصور شامل كامل • ولكنه كذلك تصور واقعي ايجابي • وهو يكره ـ بطبيعته ـ ان يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي ، لان هذا يخالف طبيعته وغايته • ويجب ان يتمثل في أناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية •• وطريقته في التكون ان ينمو من خلال الاناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ، حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيا ـ ولا ينفصل في صورة « النظرية » بل يظل ممثلا في صورة « الواقع » الحركي ••

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ، ولا يتمثل من خلاله ، هو خطأ وخطر كذلك ، بالقياس الى طبيعة هذا الدين وغايته ، وطريقة تركيبه الذاتي •

والله ـ سبحانه ـ يقول :

« وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » •••

(الاسراء : ١٠٦)

فالفرق مقصود • والمكث مقصود كذلك ، ليتم البناء التكويني ، المؤلف من عقيدة في صورة « منظمة حية » لا في صورة « نظرية » !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا أنه ـ كما انه في ذاته دين رباني ـ فان منهجه في العمل منهج رباني

كذلك • متواف مع طبيعته ، وانه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل •

ويجب أن يعرفوا كذلك ان هذا الدين ـ كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي ، ومن ثم يغير الواقع الحيوي ـ فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الذي يبني به التصور الاعتقادي ، ويغير به الواقع الحيوي •• جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة •• ثم لينشيء منهج تفكير خاصا به ، بنفس الدرجة التي ينشيء بها تصوراً اعتقاديا وواقعا حيويا • ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص ، وتصوره الاعتقادي الخاص ، وبنائه الحيوي الخاص •• فكلها حزمة واحدة ••

فاذا نحن عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ، وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الاولى ، انما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين ـ في اي وقت ـ الا به •

انه لم تكن وظيفة الاسلام ان يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب ، ولكن كانت وظيفته كذلك ان يغير منهج تفكيرهم ، وتناولهم للتصور وللواقع ، ذلك انه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة •

ونحن لا نملك ان نصل الى التصور الرباني والى الحياة الربانية ، الا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك ، المنهج الذي اراد الله ان يقيم منهج تفكير الناس على اساسه ، ليصح تصورهم الاعتقادي وتكوينهم الحيوي •

***

نحن ، حين نريد من الاسلام ان يجعل من نفسه « نظرية » للدراسة ، نخرج به عن طبيعة منهج التكوين

الرباني ، وعن طبيعة منهج التفكير الرباني كذلك ، ونخضع الاسلام لمناهج التفكير البشرية ! كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لنرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !

والامر من هذه الناحية يكون خطيرا ، والهزيمة تكون قاتلة ٠

ان وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا ـ نحن أصحاب الدعوة الاسلامية ـ منهجا خاصا للتفكير ، نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الارض ، والتي تضغط على عقولنا ، وتترسب في ثقافتنا ٠٠ فاذا نحن أردنا ان نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته ، من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة ، كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية ، وحرمنا انفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا ، وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا وتكويننا ٠

والامر من هذه الناحية يكون خطيرا كذلك ، والخسارة تكون قاتلة ٠

ان منهج التفكير والحركة في بناء الاسلام ، لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ، ولا ينفصل عنه كذلك ٠ ومهما يخطر لنا أن نقدم هذا التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية ، فيجب الا يغيب عن بالنا ان هذا لا ينشىء « الاسلام » في الارض في صورة حركة واقعية ، بل يجب ألا يغيب عن بالنا انه لن يفيد من تقديمنا الاسلام في هذه الصورة الا المشتغلون فعلا بحركة اسلامية واقعية ، وان قصارى ما يفيده هؤلاء انفسهم من تقديم الاسلام لهم في هذه الصورة هو ان يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا هم اليه فعلا في اثناء الحركة ٠

ومرة اخرى أكرر ان التصور الاعتقادي يجب ان يتمثل من فوره في تجمع حركي ، وان يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي ٠

ومرة اخرى اكرر كذلك ان هذا هو المنهج الطبيعي للاسلام الرباني ، وانه منهج أعلى وأقوم ، وأشد فاعلية ، واكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين فعلا بحركة واقعية، وقبل ان يكونوا هم أنفسهم ترجمة حية ، تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري ٠

***

واذا صح هذا في أصل النظرية فهو اصح بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم اسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الاسلامي ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام ٠

ان الجاهلية التي حولنا ـ كما أنها تضغط على اعصاب بعض المخلصين من اصحاب الدعوة الاسلامية ، فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الاسلامي ـ هي كذلك تتعمد احيانا ان تحرجهم ٠ فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون اليه ؟ وماذا اعددتم لتنفيذه من بحوث ومن دراسات ومن فقه مقنن على الاصول الحديثة ! كأن الذي ينقص الناس في هذا الزمان لاقامة شريعة الاسلام في الارض هو مجرد الاحكام الفقهية والبحوث الفقهية الاسلامية ٠ وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله راضون بأن تحكمهم شريعته ، ولكنهم فقط لا يجدون من « المجتهدين » فقها مقننا بالطريقة الحديثة ! ٠٠ وهي سخرية هازلة يجب ان يرتفع عليها كل ذي قلب يحس لهذا الدين بحرمة !

ان الجاهلية لا تريد بهذا الاحراج الا أن تجد لنفسها تعلة في نبذ شريعة الله ، واستبقاء عبودية البشر للبشر ·· والا أن تصرف العصبة المسلمة عن منهجها الرباني ، فتجعلها تتجاوز مرحلة بناء العقيدة في صورة حركية ، وأن تحول منهج أصحاب الدعوة الاسلامية عن طبيعته التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، وتتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة ، وتسن فيها التشريعات في مواجهة الحياة الاسلامية الواقعية بمشكلاتها الحقيقية ·

ومن واجب أصحاب الدعوة الاسلامية الا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم ان يرفضوا املاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم الا يستخفهم الذين لا يوقنون !

ومن واجبهم ان يكشفوا مناورة الاحراج ، وان يستعلوا عليها ، وان يرفضوا السخرية الهازلة في ما يسمى « تطوير الفقه الاسلامي » في مجتمع لا يعلن خضوعه لشريعة الله ورفضه لكل شريعة سواها · من واجبهم ان يرفضوا هذه التلهية عن العمل الجاد ·· التلهية باستنبات البذور في الهواء ·· وأن يرفضوا هذه الخدعة الخبيثة !

ومن واجبهم أن يتحركوا وفق منهج هذا الدين في الحركة · فهذا من اسرار قوته · وهذا هو مصدر قوتهم كذلك ·

ان « المنهج » في الاسلام يساوي « الحقيقة » · ولا انفصام بينهما · وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الاسلام في النهاية · والمناهج الغريبة يمكن ان تحقق أنظمتها البشرية · ولكنها لا يمكن أن تحقق منهجنا · فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة اسلامية ··

« ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ··

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

ان الدعوة الاسلامية ـ على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انما تمثل الحلقة الاخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة الى الاسلام بقيادة موكب الرسل الكرام ‥ وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف امرا واحدا : هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ، وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق ‥ ولم يكن الناس ـ فيما عدا افرادا معدودة في فترات قصيرة ـ ينكرون مبدأ الالوهية ويجحدون وجود الله البتة ، انما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة اخرى : إما في صورة الاعتقاد والعبادة ، وإما في صورة الحاكمية والاتباع ، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله ، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ، ثم ينكرونه اذا طال عليهم الامد ، ويرتدون الى الجاهلية التي أخرجهم منها ، ويعودون الى الشرك بالله مرة اخرى . اما في الاعتقاد والعبادة ، واما في الاتباع والحاكمية . واما فيها جميعا ‥

هذه طبيعة الدعوة الى الله على مدار التاريخ البشري . انها تستهدف « الاسلام » ‥ اسلام العباد لرب العباد ، واخراجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، باخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، الى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة ‥ وفي هذا جاء الاسلام على يد محمد صلى

الله عليه وسلم ، كما جاء على ايدي الرسل الكرام قبله ٠٠ جاء ليرد الناس الى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس ، فيجب ان تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده ، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله ٠ بل الذي يصرف وجودهم هم انفسهم في غير الجانب الارادي من حياتهم ٠ فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم ، وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ، كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها ، وهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه ٠ ومن ثم ينبغي ان يثوبوا الى الاسلام في الجانب الارادي من حياتهم ، فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون هذه الحياة ، تنسيقا بين الجانب الارادي في حياتهم والجانب الفطري ، وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني (١) ٠

ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر ، والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني ، والتصادم بين منهج الجانب الارادي في حياة الانسان والجانب الفطري ٠٠ هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة الى الاسلام لله وحده ، والتي واجهها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعوته ٠٠ هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في « نظرية » مجردة٠ بل ربما احيانا لم تكن لها « نظرية » على الاطلاق ! انما كانت متمثلة دائما في تجمع حركي ٠ متمثلة في مجتمع ، خاضع لقيادة هذا المجتمع ، وخاضع لتصوراته وقيمه

---

(١) يراجع بتوسع في هذه النقطة كتاب « مبادىء الاسلام » للسيد ابي الأعلى المودي امير الجماعة الاسلامية في باكستان ٠

ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته ٠ وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي ، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك ـ بارادة واعية او غير واعية ـ للمحافظة على وجوده ، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في اية صورة من صور التهديد ٠

ومن اجل ان الجاهلية لا تتمثل في « نظرية » مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو ، فان محاولة الغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس الى الله مرة اخرى ، لا يجوز ـ ولا يجدي شيئا ـ ان تتمثل في « نظرية » مجردة ٠ فانها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي ، فضلا على ان تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة الغاء وجود قائم بالفعل لاقامة وجود آخر يخالفه مخالفة اساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته ٠ بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة ان تتمثل في تجمع عضوي حركي اقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلا ٠

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الاسلام ـ على مدار التاريخ البشري ـ هي قاعدة : « شهادة ان لا اله الا الله » اي إفراد الله ـ سبحانه ـ بالالوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ٠٠ إفراده بها اعتقادا في الضمير ، وعبادة في الشعائر ، وشريعة في واقع الحياة ٠ فشهادة ان لا اله الا الله ، لا توجد فعلا ، ولا تعتبر موجودة شرعا الا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجودا جديا حقيقيا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم ٠

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية ٠٠ ان

تعود حياة البشر بجملتها الى الله ، لا يقضون هم في اي شأن من شؤونها ، ولا في اي جانب من جوانبها ، من عند انفسهم ، بل لا بد لهم ان يرجعوا الى حكم الله فيها ليتبعوه .. وحكم الله هذا يجب ان يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم اياه ، وهو رسول الله . وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الاسلام الاول : « شهادة ان محمدا رسول الله » .

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الاسلام ويقوم عليها .. وهي تنشيء منهجا كاملا للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الاسلام وخارجها ، في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الاخرى (١) .

ولكن الاسلام ـ كما قلنا ـ لم يكن يملك ان يتمثل في « نظرية » مجردة ، يعتنقها من يعتنقها اعتقادا ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفرادا ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلا . فان وجودهم على هذا النحو ـ مهما كثر عددهم ـ لا يمكن ان يؤدي الى « وجود فعلي » للاسلام ، لان الافراد « المسلمين نظريا » الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتما للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية .. سيتحركون ـ طوعا أو كرها ، بوعي أو بغير وعي ـ لقضاء الحاجات الاساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده ، وسيدافعون عن كيانه ، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه ، لان الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل

---

(١) راجع فصل « لا اله الا الله منهج حياة » .

أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا ٠٠ أي ان الافراد « المسلمين نظريا » سيظلون يقومون « فعلا » بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون « نظريا » لازالته ، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى ، وذلك بدلا من ان تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لاقامة المجتمع الاسلامي !

ومن ثم لم يكن بد ان تتمثل القاعدة النظرية للاسلام (اي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الاولى ٠٠ لم يكن بد ان ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الاسلام الغاءه ، وان يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بعده في كل قيادة اسلامية تستهدف رد الناس الى الوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ـ وان يخلع كل من يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ولاءه من التجمع الحركي الجاهلي ـ اي التجمع الذي جاء منه ـ ومن قيادة ذلك التجمع ـ في اية صورة كانت ، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن اليهم ، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش ـ وان يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الاسلامي الجديد ، وفي قيادته المسلمة ٠

ولم يكن بد ان يتحقق هذا منذ اللحظة الاولى لدخول المسلم في الاسلام ، ولنطقه بشهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، لان وجود المجتمع المسلم لا يتحقق الا بهذا ٠ لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب افراد

مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون في تجمع عضـوي متناسـق متعاون ، له وجود ذاتي مستقـل ، يعمل أعضاؤه عملا عضويا ـ كأعضاء الكائن الحي ـ على تأصيـل وجوده وتعميقـه وتوسيعه ، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التـي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيـادة المجتمـع الجاهلي ، تنظم حركتهم وتنسقهـا ، وتوجههـم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الاسلامـي ، ولمكافحة ومقاومة وازالة الوجود الآخر الجاهلي ٠

وهكذا وجد الاسلام ٠٠ هكذا وجد متمثـلا في قاعـدة نظرية مجملة ـ ولكنها شاملة ـ يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي ، مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلـي ومواجه لهذا المجتمع ٠٠ ولم يوجد قط في صورة « نظرية » مجردة عن هذا الوجود الفعلي ٠٠ وهكـذا يمكن ان يوجـد الاسلام مرة اخرى ، ولا سبيل لاعادة انشائه في ظل المجتمـع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية ٠

وبعد : فان الاسلام ـ وهو يبني الامـة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ، ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي ، ويجعل آصرة هذا التجمع هـي العقيدة ـ انما كان يستهدف ابراز « انسانية الانسـان » وتقويتهـا وتمكينها ، واعلاءها على جميع الجوانب الاخرى فـي الكائن الانساني ، وكان يمضي في هذا على منهجـه المطرد فـي كل قواعده وتعليماته وشرائعه واحكامه ٠٠

ان الكائن الانساني يشترك مع الكائنـات الحيوانية ـ بل الكائنات المادية ـ في صفـات توهم أصحاب « الجهـالة العلمية ! » مرة بأنه حيوان كسائر الحيـوان ، ومرة بأنـه مادة كسائر المواد ! ولكن الانسان مـع اشتراكه فـي هذه

« الصفات » مع الحيوان ومع المادة له « خصائص » تميـزه وتفرده ، وتجعل منه كائناً فريداً ، كما اضطر أصحاب « الجهالة العلمية ! » اخيرا ان يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي اعناقهم ليّا ، فيضطرون لهـذا الاعتراف في غير اخلاص ولا صراحة (١) !

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الاسلامي في هذه القضية ، ولاقامة التجمع الاسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون اواصر الجنس والارض واللون واللغة والمصالح الارضية القريبة الحدود الاقليمية السخيفة ! ولابراز « خصائص الانسان » في هـذا التجمع وتنميتها واعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان ٠ كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج ان اصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الاجناس والاقـوام والالوان واللغات ، بـلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وان صبّت في بوتقة المجتمع الاسلامي خصائص الاجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وانشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة ، وصنعت هـذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان ٠

لقد اجتمع في المجتمع الاسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والاغريقي والاندونيسي والافريقي ٠٠ الى آخر الاقوام والاجناس ٠ وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية ٠ ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » انما كانت دائما « اسلامية » ، ولم تكن يوما « قومية » انما

---

(١) في مقدمة هؤلاء جوليان هاكسلي من اصحاب « الدرونية الحديثة »٠

كانت دائما « عقيدية » ٠

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع الى وجهة واحدة ٠ فبذلوا جميعهم اقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص اجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون اليه جميعا على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها انسانيتهم وحدها بلا عائق ، وهذا ما لم يجتمع قط لاي تجمع آخر على مدار التاريخ !٠٠

لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الامبراطورية الرومانية مثلا ٠ فقد جمعت بالفعل اجناسا متعددة ، ولغات متعددة ، والوانا متعددة ، وأمزجة متعددة ولكن هذا كله لم يقم على « آصرة انسانية » ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة ، لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الاشراف وطبقة العبيد في الامبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني ــ بصفة عامة ــ وعبودية سائر الاجناس الاخرى ٠ ومن ثم لم يرتفع قط الى أفق التجمع الاسلامي ، ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الاسلامي ٠

كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ٠٠ تجمع الامبراطورية البريطانية مثلا ٠٠ ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه ! تجمعا قوميا استغلاليا ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الامبراطورية ٠٠ ومثله الامبراطوريات الاوربية كلها : الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والامبراطورية الفرنسية ٠٠ كلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية ان تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والارض واللغة واللون ،

ولكنها لم تقمه على قاعدة « انسانية » عامة ، انما اقامته على القاعدة « الطبقية » . فكان هذا التجمع هو الوجه الاخر للتجمع الروماني القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة « الاشراف » وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ، والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الاسود على سائر الطبقات الاخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض ان يثمر الا أسوأ ما في الكائن الانساني .. فهو ابتداء قائم على أساس ابراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار ان « المطالب الاساسية » للانسان هي « الطعام والمسكن والجنس » ـ وهي مطالب الحيوان الاولية ـ وباعتبار ان تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!!

لقد تفرد الاسلام بمنهجه الرباني في ابراز اخص خصائص الانسان وتنميتها واعلائها في بناء المجتمع الانساني. وما يزال متفردا .. والذين يعدلون عنه الى اي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة اخرى من القوم أو الجنس أو الارض أو الطبقة .. الى آخر هذا النتن السخيف هم اعداء الانسان حقا ! هم الذين لا يريدون لهذا الانسان ان يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه ان ينتفع بأقصى كفايات اجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق .. وهم الذين يقول الله سبحانه في امثالهم:

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا . الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . وذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .

وصدق الله العظيم ..

الجهاد في سبيل الله

لخص الامام ابن القيم سياق الجهاد في الاسلام في « زاد المعاد » في الفصل الذي عقده باسم : « فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث الى حين لقي الله عز وجل » : اول ما أوحى به تبارك وتعالى ، ان يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك اولى نبوته ، فأمره ان يقرأ في نفسه « فأنذر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ : « يا أيها المدثر » ، ثم أمره ان ينذر عشيرته الاقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة واذن له في القتال . ثم أمره ان يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر ان يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها : فأمر ان يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الاسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة

واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم .. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره ان يتم لهم عهدهم الى مدتهم . وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، او كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فاذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق ، أربعة اشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده الى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم الى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الاسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .. وأما سيرته في المنافقين فانه أمر ان يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله ، وان يجاهدهم بالعلم والحجة ، وامر ان يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وان يبلغ بالقول البليغ الى نفوسهم ، ونهي ان يصلي عليهم ، وان يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه ان استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته في اعدائه من الكفار والمنافقين » ..

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الاسلام تتجلى سمات اصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف امامها طويلا ، ولكننا لا نملك هنا الا ان نشير اليها اشارات مجملة :

السمة الاولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا

الدين ‥ فهو حركة تواجه واقعا بشريا ‥ وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي ‥ انها تواجـــه جاهلية اعتقاديـة تصورية ، تقوم عليها انظمة واقعية عملية ، تسندها سلطـات ذات قوة مادية ‥ ومن ثم تواجـــه الحركة الاسلامية هــذا الواقع كله بما يكافئه ‥ تواجهه بالدعوة والبيـان لتصحيح المعتقدات والتصورات ، وتواجهه بالقوة والجهـــاد لازالـــة الانظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بـين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيـــان للمُعتقدات والتصـورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغـــير ربهم الجليل ‥ انها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي ، كما انها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الافراد ‥ وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لاخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده كما سيجيء ·

والسمة الثانية في منهج هذا الدين : هـــي الواقعيـــة الحركية ‥ فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلـم الى المرحلة التي تليها ‥ فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة · كما انه لايقابل مراحل هذا الواقع بوسائـــل متجمدة ‥ والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهـج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هـــذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بهـــا هذا المنهـــج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها ‥ الذين يصنعون هـــذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله مـــن المبادىء والقواعـــد النهائية · ذلك انهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصـا نهائيا ، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين ، ويقولون ــ وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري

المسلمين الذين لم يبق لهـــم من الاسلام الا العنوان ـ : ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع ! ويحسبون انهم يسدون الــى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو ازالـــة الطواغيــت كلها من الارض جميعا ، وتعبيد الناس لله وحده ، واخراجهم من العبودية للعباد الى العبوديـــة لرب العباد ! لا بقهرهـــم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيــدة ٠٠ بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرهـــا حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامهـــا والتخلية بين جماهيرهـــا وهذه العقيدة ، تعتنقها او لا تعتنقها بكامل حريتها ٠

والسمة الثالثة : هي ان هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن اهدافـــه المرسومة ٠ فهو ـ منـــذ اليوم الاول ـ سواء وهو يخاطب العشيرة الاقربين ، أو يخاطب قريشا ، أو يخاطــب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمـــين ، انما يخاطبهم بقاعــدة واحدة ، ويطلب منهم الانتهاء الى هدف واحد هو اخـــلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد ٠ لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين ٠٠ ثم يمضي الى تحقيق هـــذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة ، لكـــل مرحلة وسائلها المتجددة ٠ على نحو ما اسلفنا في الفقرة السابقة ٠

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الاخرى ـ عـــلى النحـــو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيـــد الذي نقلناه عـــن « زاد المعاد » ـ وقيام ذلك الضبط على أساس ان الاســـلام لله هو الاصل العالمي الذي على البشرية كلها ان تفيء اليـــه ، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوتـــه بأي حائل من نظــام سياسي ، أو قوة مادية ، وان تخلي بينه وبـــين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادتـــه ، ولكن لا يقاومـــه ولا

يحاربه ! فان فعل ذلك احد كان على الاسلام ان يقاتله حتى يقتله او حتى يعلن استسلامه !

***

والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن « الجهاد في الاسلام » ليدفعوا عن الاسلام هذا « الاتهام » يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة ، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ، والتي تعبد الناس للناس ، وتمنعهم من العبودية لله .. وهما امران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما .. ومن أجل هذا التخليط ، وقبل ذلك من اجل تلك الهزيمة ! ـ يحاولون أن يحصروا الجهاد في الاسلام فيما يسمونه اليوم : « الحرب الدفاعية » .. والجهاد في الاسلام امر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك .. ان بواعث الجهاد في الاسلام ينبغي تلمسها في طبيعة « الاسلام » ذاته ودوره في هذه الارض ، واهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله انه ارسل من اجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات .

ان هذا الدين اعلان عام لتحرير « الانسان » في « الارض » من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه ايضا وهي من العبودية للعباد ـ وذلك باعلان الوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين .. ! ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها واشكالها وانظمتها واوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في ارجاء الارض ، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور .. او بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر في

صورة من الصور •• ذلك ان الحكم الذي مردّ الامر فيه الى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض اربابا من دون الله • ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده الى الله ، وطرد المغتصبين له ، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند انفسهم ، فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد •• ان معناه تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض ، او بالتعبير القرآني الكريم :

« وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله » •

« ان الحكم الا لله •• أمر ألاّ تعبدو الاّ ايّاه •• ذلك الدين القيم •• »

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم •• ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله • فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون •• »

ومملكة الله في الارض لا تقوم بان يتولى الحاكمية في الارض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الامر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فيما يعرف باسم « الثيوقراطية » أو الحكم الالهي المقدس !! ـ ولكنها تقوم بأنتكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مرد الامر الى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة •

وقيام مملكة الله في الارض ، وازالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من ايدي مغتصبيه من العباد ورده الى الله وحده •• وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية •• كل اولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان ، لان

المتسلطين على رقاب العباد ، والمغتصبين لسلطان الله في الارض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، والا فما كان أيسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتاريخ هذا الدين على ممر الاجيال !

ان هذا الاعلان العام لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله ، باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن اعلانا نظريا فلسفيا سلبيا ٠٠ انما كان اعلانا حركيا واقعيا ايجابيا ٠٠ اعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ٠٠ ومن ثم لم يكن بد من ان يتخذ شكل « الحركة » الى جانب شكل « البيان » ٠٠ ذلك ليواجه « الواقع » البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه ٠

والواقع الانساني ، أمس واليوم وغدا ، يواجه هذا الدين ـ بوصفه اعلانا عاما لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله ـ بعقبات اعتقادية تصورية ، وعقبات مادية واقعية ٠٠ وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، الى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة ٠٠ وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ٠

واذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فان « الحركة » تواجه العقبات المادية الاخرى ـ وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة ـ ٠٠ وهما معا ـ البيان والحركة ـ يواجهان « الواقع البشري » بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته ٠٠

وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للانسان في الارض ·· « الانسان » كله في « الارض » كلها ·· وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة اخرى !

ان هذا الدين ليس اعلانا لتحرير الانسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! ·· ان موضوعه هو « الانسان » ·· نوع « الانسان » ·· ومجاله هو « الارض » ·· كل « الارض » · ان الله ـ سبحانه ـ ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الاسلامية وحدهم ·· ان الله هو « رب العالمين » ·· وهذا الدين يريد أن يرد « العالمين » الى ربهم ، وان ينتزعهم من العبودية لغيره · والعبودية الكبرى ـ في نظر الاسلام ـ هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر ·· وهذه هي « العبادة » التي يقرر أنها لا تكون الا لله ، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى انه في هذا الدين · ولقد نص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن « الاتّباع » في الشريعة والحكم هو « العبادة » التي صار بها اليهود والنصارى « مشركين » مخالفين لما أمروا به من « عبادة » الله وحده ··

أخرج الترمذي ـ باسناده ـ عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ انه لما بلغته دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فر الى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أخته فاعطاها ، فرجعت الى أخيها فرغّبته في الاسلام ، وفي القدوم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي عنقه ـ اي « عدي » صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه

الآية .. « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .. قال : فقلت انهم لم يعبدوهم ، فقال « بلى ! انهم حرّموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم اياهم » .

وتفسير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقول الله سبحانه ، نص قاطع على ان الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس اربابا لبعض .. الامر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ، ويعلن تحرير « الانسان » ، في « الارض » من العبودية لغير الله ..

ومن ثم لم يكن بد للاسلام ان ينطلق في « الارض » لازالة « الواقع » المخالف لذلك الاعلان العام .. بالبيان وبالحركة مجتمعين .. وان يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبّد الناس لغير الله .. – اي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع الى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي – بعد ازالة القوة المسيطرة – سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية ، أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

انه لم يكن من قصد الاسلام قط ان يكره الناس على اعتناق عقيدته .. ولكن الاسلام ليس مجرد « عقيدة » . ان الاسلام كما قلنا اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على اساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان .. ثم يطلق الافراد بعد ذلك احرارا – بالفعل – في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم – بعد رفع

الضغط السياسي عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ـ ولكن هذه التجربة ليس معناها ان يجعلوا الههم هواهم ، أو ان يختاروا بأنفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد ! وان يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله !٠٠ ان النظام الذي يحكم البشر في الارض يجب ان تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده ٠ ثم ليعتنق كل فرد ـ في ظل هذا النظام العام ـ ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله ٠ اي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله ٠٠ ان مدلول « الدين » اشمل من مدلول « العقيدة » ان الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة ، وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة ، ولكنه في عمومه اشمل من العقيدة ٠٠ وفي الاسلام يمكن ان تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على اساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام ٠

والذي يدرك طبيعة هذا الدين ـ على النحو المتقدم ـ يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للاسلام في صورة الجهاد بالسيف ـ الى جانب الجهاد بالبيان ـ ويدرك ان ذلك لم يكن حركة دفاعية ـ بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح « الحرب الدفاعية » كما يريد المهزومون امام ضغط الواقع الحاضر وامام هجوم المستشرقين الماكر ان يصوروا حركة الجهاد في الاسلام ـ انما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الانسان » في « الارض » ٠٠ بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة ٠

واذا لم يكن بد ان نسمي حركة الاسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة « دفاع » ، ونعتبره « دفاعا عن الانسان » ذاته ، ضد جميع العوامل التي تقيد

حريته وتعوق تحرره·· هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ، كما تتمثل في الانظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام ، والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة « الدفاع » نستطيع ان نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامي في « الارض » بالجهاد، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها ، وهي انه اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقرير الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الارض ، واقامة مملكة الشريعة الالهية في عالم الانسان ··

اما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن اسانيد لاثبات ان وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الاسلامي » ـ وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب ـ فهي محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الارض · كما انها تشي بالهزيمة امام ضغط الواقع الحاضر ، وامام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ترى لو كان ابو بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامي الى اطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وامام الدعوة تلك العقبات المادية من انظمة الدولة السياسية ، وانظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

انها سذاجـــــة ان يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير « الانسان » ·· نوع الانســـان ·· في « الارض » ·· كـــل الارض ·· ثم تقف امام هذه العقبات تجاهدهـــا باللسان والبيان ! ·· انها تجاهد باللسان والبيان حينمـــا يخـــلى بينها وبين الافراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات ·· فهنا « لا اكراه في الدين » ·· امـــا حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد مـــن ازالتها اولا بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله ، وهـــو طليق من هذه الاغلال !

ان الجهاد ضرورة للدعوة ، اذا كانت أهدافهـــا هـــي اعلان تحرير الانسان اعلانا جادا يواجـــه الواقع الفعلـــي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري ! سواء كان الوطن الاسلامي ـ وبالتعبير الاسلامـــي الصحيح : دار الاسلام ـ آمنـــا أم مهددا من جـــيرانه · فالاسلام حين يسعى الى السلـــم ، لا يقصد تلك السلـــم الرخيصة ، وهي مجرد ان يؤمن الرقعة الخاصة التـــي يعتنق أهلها العقيدة الاسلامية · انما هو يريد السلم التـــي يكون الدين فيها كله لله ، أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ، والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله · والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت اليها الحركة الجهاديـــة في الاسلام ـبأمر من اللهـ لا بأوائل ايام الدعوة ولا بأواسطها ·· ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الامـــام ابن القيـــم : « فاستقر أمر الكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ عـــلى ثلاثـــة اقسام : محاربين له ، وأهل عهـــد ، وأهل ذمة ·· ثـــم آلت حال أهل العهد والصلح الـــى الاسلام ·· فصاروا معـــه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ·· فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم

له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب » ..

وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه ، لا كما يفهم المهزومون امام الواقع الحاضر ، وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ، وفي أول العهد بالهجرة الى المدينة .. وقيل للمسلمين : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ثم اذن لهم فيه ، فقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .. وقيل لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فكان القتال ـ كما يقول الامام ابن القيم ـ « محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين » ..

ان جدّية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ، وجدية الاحاديث النبوية التي تحض عليه ، وجدية الوقائع الجهادية

في صدر الاسلام ، وعلى مدى طويل مـــن تاريخه ٠٠ ان هذه الجدية الواضحة تمنع ان يجـــول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومـــون امام ضغط الواقع الحاضر وامـــام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه فـــي هذا الشأن وقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتابع وقائع الجهـــاد الاسلامي ، ثم يظنـــه شأنا عارضا مقيـــدا بملابسات تذهب وتجيء ، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيـــات التي أذن لهم فيها بالقتال ان الشأن الدائم الاصيـــل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفـــع الناس بعضهم ببعض ، لدفـــع الفساد عن الارض : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير ٠ الذين اخرجـــوا من ديارهم بغـــير حق الا ان يقولوا ربنا الله ٠ **ولولا دفع الله الناس بعضهـــم ببعض لهدمت صوامع وبيـــع وصلوات ومساجد يذكر فيهـــا اسم الله كثيرا** » ٠٠ واذن فهو الشأن الدائـــم لا الحالـــة العارضة ٠ الشأن الدائم ان لا يتعايش الحق والباطـــل فـــي هذه الارض ٠ وانه متى قام الاســـلام باعلانه العام لاقامـــة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية للعبـــاد ، رماه المغتصبون لسلطان الله في الارض ولم يسالمـــوه قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس مـــن سلطانهـــم ويدفع عن « الانسان » في « الارض » ذلك السلطـــان الغاصب ٠٠ حال دائمـــة لا يقف معها الانطلاق الجهـــادي التحريري حتى يكون الدين كله لله ٠

ان الكف عن القتال في مكة لم يكن الا مجرد مرحلـــة في خطة طويلة ٠ كذلك كان الامر اول العهـــد بالهجرة ٠ والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الاولـــى

للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة ٠٠ هذا هدف اولي لا بد منه ، ولكنه ليس الهدف الاخير ٠ ٠انه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ، ويؤمن قاعدة الانطلاق ٠٠ الانطلاق لتحرير « الانسان » ، ولازالة العقبات التي تمنع « الانسان » ذاته من الانطلاق !

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم٠ لانه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ ٠٠ كان صاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملك بحماية سيوف بني هاشم ، أن يصدع بالدعوة ، ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ، ويواجه بها الافراد ٠٠ لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من ابلاغ الدعوة ، أو تمنع الافراد من سماعه ! فلا ضرورة ـ في هذه المرحلة ـ لاستخدام القوة ، وذلك الى أسباب اخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة ٠ وقد لخصتها في ظلال القرآن عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٠٠٠ » من سورة النساء ٠ ولا بأس في اثبات بعض هذا التلخيص هنا :

« ربما كان ذلك لان الفترة المكية كانت فترة تربية واعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة ٠ ومن اهداف التربية والاعداد في مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه او على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته ٠ وتربيته كذلك على ضبط اعصابه ، فلا يندفع لاول مؤثر ـ كما هي طبيعته ـ ولا يهتاج لاول مهيج ، فيتم الاعتدال في طبيعته وحركته ٠ وتربيته على ان يتبع مجتمعا منظما له قيادة

يرجع اليها في كل امر من أمور حياته ، ولا يتصرف الا وفق ما تأمره به ـ مهما يكن مخالفا لمالوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الاساس في اعداد شخصية العربي ، لانشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي او القبلي !

« وربما كان ذلك أيضا . لان الدعوة السلمية كانت أشد أثرا وانفذ ، في مثل بيئة قريش . ذات العنجهية والشرف . والتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه المرحلة ـ الى زيادة العناد ، والى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي اثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، اعواما طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في اذهانهم وذكرياتهم بالاسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك ابدا ، ويتحول الاسلام من دعوة ودين الى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الاساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر ابدا !

« وربما كان ذلك ايضا ، اجتنابا لانشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم ، انما كان ذلك موكولا الى اولياء كل فرد يعذبونه ويفتنونه « ويؤدبونه ! » ومعنى الاذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ ان تقع معركة ومقتلة في كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الاسلام ! ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم . في أواسط العرب القادمين للحج والتجارة : ان محمدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي .. في كل بيت وفي كل محلة ؟

« وربما كان ذلك ايضا لما يعلمه الله من ان كثيرين

من المعاندين الذين يفتنون اوائـــل المسلمين عن دينهـــم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الاسلام المخلص ، بل من قادته ٠٠ ألم يكن عمر بن الخطاب من بـــين هؤلاء ؟!

« وربما كان ذلك أيضا ، لان النخوة العربية ٠ فـــي بيئة قبلية ، من عادتها ان تثور للمظلوم الذي يحتمل الاذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة اذا كان واقعا على كرام الناس فيهم ٠٠ وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ فـــي هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض ان يترك ابا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته ٠٠ وآخر هذه الظواهـــر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب ابـــي طالب ، بعد مـــا طال عليهم الجوع واشتدت المحنة ٠٠ بينما في بيئـــة اخرى من بيئات « الحضارة » القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الاذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقـــار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

« وربما كان ذلك ، ايضا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ٠ وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة او بلغت اخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف عـــلى الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض ابنائهـــا ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف ٠ ففي مثل هـــذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، الى قتل المجموعة المسلمة القليلـــة ـ حتى ولو قتلوا هم اضعاف من سيقتل منهـــم ـ ويبقـــى الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولـــم يقـــم في الارض للاسلام نظام ، ولا وجد له كيـــان واقعي ٠ وهو دين جـــاء ليكون منهاج حياة ، وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة ٠

« ٠٠٠ الخ » ٠٠٠

فأما في المدينة ـ في أول العهد بالهجرة ـ فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ..

اولا : لان هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على الا يعقد احد منهم صلحا ولا يثير حربا ، ولا ينشيء علاقة خارجية الا باذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان واضحا ان السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال امام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيا : ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يريد التفرغ ، في هذه المرحلة ـ لقريش ، التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الاخرى الواقعة في حالة انتظار لما ينتهي اليه الامر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارسال « السرايا » وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة اشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة اشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهرا . ثم على رأس ستة عشر شهرا . ثم كانت سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرا ، وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال ، وكان ذلك في الشهر الحرام ، والتي نزلت فيها آيات البقرة : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ،

واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة اكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا .. »

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هـذه السنة .. وهي التي نزلت فيها سورة الانفال .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالا للقول بأن « الدفاع » بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الاسلامية ، كما يقول المهزومون امام الواقع الحاضر ، وأمـام الهجوم الاستشراقي الماكر !

ان الذين يلجأون الى تلمس اسباب دفاعية بحتة لحركة المد الاسلامي ، انما يؤخذون بحركة الهجـوم الاستشراقية ، في وقت لم يعد للمسلمين شوكة ، بل لم يعد للمسلمين اسلام! ـ الا من عصم الله ممن يصرون على تحقيـق اعلان الاسلام العام بتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان الا من سلطان الله ، ليكون الدين كله لله ـ فيبحثـون عن مبررات ادبية للجهاد في الاسلام !

والمد الاسلامي ليس في حاجة الى مبررات أدبيـة له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيـا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون فـي سبيل اللـه والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعـل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ الذين آمنوا يقاتلـون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .. (النساء : ٧٤ ـ ٧٦) .

« قل للذين كفروا : ان ينتهوا يغفر لهم ما قـد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين • وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنة ويكون الدين كله لله • فان انتهوا فان الله بمـا يعملون بصير ، وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم ، نعم المـولى ونعم النصير » •• (الانفال : ٣٨ ــ ٤٠) •

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحـق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون• وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيـح ابن الله • ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا احبارهم ورهبانهـم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون • يريـدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نـوره ، ولو كره الكافرون » ••• (التوبة : ٢٩ ــ ٣٢) •

انها مبررات تقرير الوهية الله في الارض ، وتحقيـق منهجه في حيـاة الناس ، ومطاردة الشياطـين ومناهـج الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الـذي يتعبد النـاس ، والناس عبيد لله وحده ، لا يجوز ان يحكمهم احد مـن عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهـذا يكفي •• مع تقرير مبدأ : « لا اكراه في الدين » •• أي لا اكـراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والاقرار بمبدأ ان السلطان كله لله ، او ان الدين كله للـه ، بهـذا الاعتبار •

انها مبررات التحرير العام للانسان في الارض • باخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك •• وهذه وحدها تكفي •• لقد كانت هذه المبررات ماثلـة في

نفوس الغزاة من المسلمين ، فلم يسأل احد منهم عما اخرجه للجهاد فيقول : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس او الروم علينا نحن المسلمين ! او خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر . وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسالهم واحدا بعد واحد في ثلاثة ايام متوالية ، قبل المعركة : ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا الى سعتها . ومن جور الاديان الى عدل الاسلام .. فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه . ومن ابى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة او الظفر » .

ان هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته ، وفي اعلانه العام ، وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل متجددة .. وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء ـ ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الارض الاسلامية وعلى المسلمين فيها ـ انه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية .. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ، وموقوتة !

وانه ليكفي لان يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله .. « في سبيل الله » .. في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ، ولا يخرجه لها مغنم ذاتي ..

ان المسلم قبل ان ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه مع الشيطان .. مع

هواه وشهواته .. مع مطامعه ورغباته .. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه .. مع كل شارة غير شارة الاسلام .. ومع كل دافع الا العبودية لله ، وتحقيق سلطانه في الارض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله ..

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الاسلامي في حماية « الوطن الاسلامي » يغضون من شأن « المنهج » ويعتبرونه اقل من « الموطن » وهذه ليست نظرة الاسلام الى هذه الاعتبارات . انها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الاسلامي ، فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الاسلامي . اما الارض ـ بذاتها ـ فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للارض في التصور الاسلامي انما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها ، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و « دار الاسلام » ونقطة الانطلاق لتحرير « الانسان » .

وحقيقة ان حماية « دار الاسلام » حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج . ولكنها هي ليست الهدف النهائي ، وليست حمايتها هي الغاية الاخيرة لحركة الجهاد الاسلامي ، انما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق الى الارض كلها والى النوع الانساني بجملته . فالنوع الانساني هو موضوع هذا الدين والارض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فان الانطلاق بالمذهب الالهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة .. وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة، كي يخلو له وجه الافراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حمـــلات المستشرقين عـــلى مبدأ « الجهاد » وألا يثقل على عاتقنـــا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالميـــة ، فنروح نبحث للجهـــاد الاسلامي عن مبررات ادبية خارجـــة عن طبيعة هذا الدين ، فـــي ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق فـــي طريقه سواء وجدت أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي الا نغفـــل عن الاعتبـــارات الذاتية في طبيعة هـــذا الدين واعلانـــه العام ومنهجه الواقعي ، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا انه لم يكن بد لهذا الدين ان يدافع المهاجمـــين له ، لان مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية اللـــه للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هـــذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غـــير قيـــادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متـــميز لا يعترف لأحـــد من البشر بالحاكمية ، لان الحاكمية فيـــه لله وحده .. ان مجرد وجود هذا الدين في هـــذه الصورة لا بد أن يدفـــع المجتمعات الجاهلية من حوله ، القائمة على قاعـــدة العبوديـــة للعباد ، أن تحاول سحقـــه ، دفاعا عن وجودها ذاتـــه ، ولا بد ان يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها ، تولد مع ميلاد الاسلام ذاتـــه ، وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضـــا ، ولا خيار لـــه في خوضها ، وهـــذا صراع طبيعي بـــين وجودين لا يمـــكن التعايش بينهما طويلا ...

هذا كله حق .. ووفق هـــذه النظرة يكون لا بـــد للاسلام أن يدافع عن وجوده ، ولا بد أن يخـــوض معركة

دفاعية مفروضة عليه فرضا ..

ولكن هنــاك حقيقة اخرى اشد اصالــة من هــذه الحقيقة .. ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته ان يتحــرك الى الامام ابتداء . لانقاذ « الانسان » في « الارض » مــن العبودية لغير الله ، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافيــة ، ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ، تاركا « الانســان » .. نوع الانسان .. في « الارض » .. كــل الارض .. للشر والفساد والعبودية لغير الله .

ان المعسكرات المعادية للاسلام قد يجيء عليهــا زمان تؤثر فيــه ألا تهاجم الاســلام ، اذا تركها الاسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليميــة ، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته واعلانــه التحريري العام ! ولكن الاسلام لا يهادنها ، الا أن تعلن استسلامها لسلطانــه في صورة اداء الجزية ، ضمانا لفتح ابوابهــا لدعوته بــلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته ، بحكم انــه اعلان عام لربوبية الله للعــالمين ، وتحرير الانسان من كــل عبودية لغير الله في الناس اجمعين !

وفرق بين تصور الاسلام على هذه الطبيعة ، وتصــوره قابعا داخل حدود اقليمية او عنصرية ، لا يحركــه الا خــوف الاعتداء ! انه في هــذه الصورة الاخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق !

ان مبررات الانطلاق الاسلامي تبرز بوضوح وعمــق عند تذكر ان هــذا الدين هو منهــج الله للحياة البشرية ، وليس منهج انسان ، ولا مذهب شيعــة مــن الناس ، ولا نظام جنس من الاجنــاس ! ... ونحن لا نبحث عــن مبررات

خارجية الا حـين تفتر في حسنا هـذه الحقيقة الهائلة ٠٠ حين ننسى ان القضيـة هي قضية الوهيـة الله وعبودية العباد ٠٠ انه لا يمكن ان يستحضر انسان ما هـذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الاسلامي !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بـين تصور ان الاسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيـار له فيها ، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعـات الجاهليـة الاخرى التي لا بد ان تهاجمه ، وتصور انه هو بذاته لا بد ان يتحرك ابتداء ، فيدخل في هذه المعركة ٠٠

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة ، فهو فـي كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتمـا ، ولكنها فـي نهايـة الطريق تبدو هائلة شاسعـة ، تغير المشاعر والمفهومـات الاسلامية تغييرا كبيرا ٠٠ خطيرا ٠

ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام منهجـا الهيا ، جاء ليقرر الوهية الله في الارض ، وعبوديـة البشر جميعا لاله واحد ، ويصب هـذا التقرير في قالب واقعـي ، هـو المجتمع الانساني الذي يتحرر فيه النـاس من العبوديـة للعباد ، بالعبودية لرب العبـاد ، فلا تحكمهم الا شريعة الله ، التي يتمثل فيها سلطان الله ، او بتعبير آخر تتمثل فيهـا ألوهيتـه ٠٠ فمن حقه اذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ، ليخاطب وجدان الافراد وعقولهم دون حواجـز ولا موانـع مصطنعة من نظام الدولة السياسي ، أو أوضـاع النـاس الاجتماعية ٠٠ ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام عـلى هذا النحو ، واعتباره نظاما محليا في وطن بعينـه فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الاقليمية !

هذا تصور ٠٠ وذاك تصور ٠٠ ولو أن الاسلام في كلتا

الحالتين سيجاهد ‥ ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه ، يختلف اختلافا بعيدا ، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه ٠

ان من حق الاسلام أن يتحرك ابتداء ٠ فالاسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج اله ، ونظام عالم ‥ ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الانظمة والاوضاع التي تغل من حرية « الانسان » في الاختيار ٠ وحسبه أنه لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته ، انما يهاجم الانظمة والاوضاع ليحرر الافراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار ٠

من حق الاسلام أن يُخرج « الناس » من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ‥ ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين ‥ وعبادة الله وحده لا تتحقق ـ في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي ـ الا في ظل النظام الاسلامي ٠ فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم ، حاكمهم ومحكومهم ، أسودهم وأبيضهم ، قاصيهم ودانيهم ، فقيرهم وغنيهم ، تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء ‥ اما في سائر الانظمة ، فيعبد الناس العباد ، لانهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد ٠ وهو من خصائص الالوهية ، فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه ، فقد ادّعى الالوهية اختصاصا وعملا ، سواء ادّعاها قولا ام لم يعلن هذا الادعاء ٠ وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الالوهية ، سواء سماها باسمها ام لم يسمها !

والاسلام ليس مجرد عقيدة ، حتى يقنع بابلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان ٠ انما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس ، والتجمعات الاخرى لا

تمكّنه من تنظيم حياة رعاياها وفـــق منهجه هو ، ومـن ثم يتحتم على الاسلام ان يزيل هــــذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام • وهذا ـ كما قلنا من قبل ـ معنى ان يكــون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونـــة ولا طاعة لعبــد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الانظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد !

ان البـــاحثين الاسلاميين المعـــاصرين المهزومين تحـت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجـــوم الاستشراقي المــاكر ، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقـة ، لان المستشرقين صوروا الاســـلام حركـــة قهر بالسيف للاكراه عـــلى العقــيدة • والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيـــدا ان هـــذه ليست هي الحقيقة ، ولكنهم يشوهون بواعث الجهــاد الاسلامي بهـــذه الطريقة •• ومن ثم يقوم المنافحون ـ المهزومون ـ عن سمعة الاسلام ، بنفي هذا الاتهـــام ، فيلجأون الى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعـــة الاسلام ووظيفته ، وحقه في « تحرير الانسان » ابتداء •

وقد غشي على أفكار الباحثين العصريـــين ـ المهزومين ـ ذلك التصور الغربي لطبيعـــة « الدين » •• وانـــه مجرد « عقيدة » في الضمير ، لا شأن لها بالانظمة الواقعية للحياة • ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهادا لفرض العقيدة على الضمير!

ولكن الامر ليس كذلك في الاســلام ، فالاسلام منهــج الله للحياة البشرية ، وهو منهج يقوم عـــلى افراد الله وحده بالالوهية ـ متمثلة في الحاكمية ـ وينظم الحيـــاة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهـــاد له جهـــاد لتقرير المنهج واقامة النظـــام • امــا العقيــدة فأمر موكول الى حريـــة الاقتناع ، في ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات ••

ومن ثم يختلف الامر من أساسه ، وتصبح لـه صورة جديدة كاملة ٠

وحيثما وجد التجمع الاسلامـي ، الذي يتمثل فيـه المنهج الالهي ، فان الله يمنحه حق الحركة والانطـلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام ، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان ٠ فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهـاد ، فهذه مسألة خطـة لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة ٠٠ وعـلى هـذا الاساس الواضح يمكن ان نفهم النصوص القرآنيـة المتعددة ، فـي المراحل التاريخية المتجددة ، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية ، والدلالة العامة لخط الحركة الاسلامية الثابت الطويل ٠



لا إله إلا الله منهج حياة

العبودية لله وحده هي شطر الركن الاول في العقيدة الاسلامية المتمثل في شهادة : ان لا اله الا الله • والتلقي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كيفية هذه العبودية ـ هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمدا رسول الله •

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لان كل ما بعدهما من مقومات الايمان ، وأركان الاسلام ، انما هو مقتضى لها • فالايمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الاسلامية ••• انما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلّغه لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه •

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعا لانه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلما •

ومن ثم تصبح شهادة ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الامة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل ان تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة اسلامية اذا قامت على غير هذه القاعدة ،

أو قامت على قاعدة أخرى معها ، او عدة قواعد اجنبية عنها :

« ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم » ... (يوسف : ٤٠) .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .. (النساء : ٨٠).

***

هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين ، وفي حركته الواقعية كذلك :

انه يفيدنا اولا في تحديد « طبيعة المجتمع المسلم » .

ويفيدنا ثانيا في تحديد « منهج نشأة المجتمع المسلم » .

ويفيدنا ثالثا في تحديد « منهج الاسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية » .

ويفيدنا رابعا في تحديد « منهج الاسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية » .

وهي قضايا اساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الاسلامية قديما وحديثا .

***

ان السمة الاولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي ان هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في امره كله .. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء.

فليس عبدا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه :

« وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ، انما هو اله واحد فاياي فارهبون . وله ما في السماوات والارض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون ؟ » ... (النحل : ٥١ ـ ٥٢) .

ليس عبدا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لاحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ :

« قل : ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وانا أول المسلمين » . (الانعام : ١٦٢ ـ ١٦٣) .

وليس عبدا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من احد سوى الله ، عن الطريق الذي بلغنا الله به ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أم لله شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » (الشورى : ٢١) .

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر : ٧) .

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم ، كما تتمثل في شعائرهم وعبادتهم ، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الاسلام نفسه عن الوجود . لتخلف ركنه الاول ، وهو شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

ولقد قلنا : ان العبودية لله تتمثل في « التصور الاعتقادي » .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الاسلامي .. انه التصور الذي ينشأ في الادراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني ، والذي يتكيف به الانسان في ادراكه لحقيقة ربه ، ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه ـ غيبه وشهوده ـ ولحقيقة الحياة التي ينتسب اليها ـ غيبها وشهودها ـ ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الانسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعا ، تعامله مع ربه تعاملا تتمثل فيه عبوديته لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الاحياء وعوالمها ، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملا يستمد أصوله من دين الله ـ كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ تحقيقا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

***

فاذا تقرر أن هذا هو « المجتمع المسلم » ، فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟

ان هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر ان عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على اساس هذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـ معه أو دونه ـ وتنقي شرائعها من التلقي

عن أحد غير الله ـ معه أو من دونه ٠

عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ تكون هـذه الجماعة مسلمة ، ويكون هذا المجتمع الذي اقامته مسلما كذلك ٠٠ فأما قبل أن يقرر ناس من الناس اخلاص عبوديتهم لله ـ على النحو الذي تقدم ـ فانهم لا يكونون مسلمين ٠٠ وأما قبل ان ينظموا حياتهم على هذا الاساس فلا يكون مجتمعهم مسلما ٠٠ ذلك ان القاعدة الاولى التي يقوم عليها الاسلام ، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم ـ هي شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ـ لم تقم بشطريها ٠٠

واذن فانه قبل التفكير في اقامة نظام اجتماعي اسلامي، واقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام ٠٠ ينبغي أن يتجه الاهتمام اولا الى تخليص ضمائر الافراد من العبودية لغير الله ـ في اية صورة من صورها التي أسلفنا ـ وان يتجمع الافراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة ٠٠ وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر افرادها من العبودية لغير الله ، اعتقادا وعبادة وشريعة ، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم ، وينضم اليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده ٠٠ أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ٠

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الاولى التي اقامت المجتمع المسلم الاول ٠٠ وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة ، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم ٠

ان المجتمع المسلم انما ينشأ من انتقال افراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله ـ معه أو من دونه ـ الى العبودية لله وحده بلا شريك ، ثم من تقرير هذه

المجموعات ان تقيم نظام حياتها على اساس هذه العبودية ..
وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد ، مشتق مـــن المجتمع الجاهلي القديم ، ومواجه له بعقيدة جديدة ، ونظـــام للحياة جديد ، يقوم على اساس هذه العقيدة ، وتتمثـــل فيه قاعـــدة الاسلام الاولى بشطريه .. شهادة أن لا الـــه الا الله وان محمدا رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكاملـــه الى المجتمع الاسلامي الجديد وقد لا ينضم ، كما أنه قد يهـــادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه ، وان كانت السنة قـــد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حربا لا هوادة فيهـــا ، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه ـ وهـــو أفراد أو مجموعـات ـ أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعـــلا ـ وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ نوح عليه السلام ، الى محمد عليه الصلاة والسلام ، بغير استثناء .

وطبيعي ان المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ، ولا يتقـــرر وجوده الا اذا بلغ درجة من القـــوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم ، قوة الاعتقـــاد والتصور ، وقـــوة الخلـــق والبناء النفسي ، وقوة التنظيم والبنـــاء الجماعي ، وسائـــر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمـــع الجاهلي ويتغلب عليه ، أو على الاقل يصمد له !

***

ولكن ما هو « المجتمع الجاهلي » ؟ ومـــا هو منهـــج الاسلام في مواجهته ؟

ان المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! واذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : انه هو كل مجتمـــع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور

الاعتقادي ، وفي الشعائر التعبدية ، وفي الشرائع القانونية ..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في اطار « المجتمع الجاهلي » جميع المجتمعات القائمة اليوم في الارض فعلا !!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية .. اولا : بالحادها في الله ـ سبحانه ـ وبانكار وجوده أصلا ، ورجع الفاعلية في هذا الوجود الى « المادة » أو « الطبيعة » ، ورجع الفاعلية في حياة الانسان وتاريخه الى « الاقتصاد » أو « أدوات الانتاج » ، ثانيا : باقامة نظام العبودية فيه للحزب ـ على فرض ان القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ! ـ لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من اهدار لخصائص « الانسان » وذلك باعتبار ان « المطالب الاساسية » له هي فقط مطالب الحيوان ، وهي : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس ! وحرمانه من حاجات روحه « الانساني » المتميز عن الحيوان ، وفي أولها : العقيدة في الله ، وحرية اختيارها ، وحرية التعبير عنها ، وكذلك حرية التعبير عن « فرديته » وهي من اخص خصائص « انسانيته » . هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية ، وفي اختيار نوع العمل والتخصص ، وفي التعبير الفني عن « الذات » الى آخر ما يميز « الانسان » عن « الحيوان » أو عن « الآلة » اذ ان التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء ، كثيرا ما يهبط بالانسان عن مرتبة الحيوان الى مرتبة الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية ـ وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفليبين وافريقية ـ تدخل فيه ـ أولا : بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله ـ معه أو من دونه ـ وتدخل فيه ثانيا : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها .. كذلك تدخل فيه

باقامة انظمة وشرائع ، المرجع فيهـا لغير الله وشريعتـه . سواء استمدت هـذه الانظمة والشرائع من المعابـد والكهـنة والسدنة والسحرة والشيوخ ، او استمدتها من هيئات مدنية « علمانية » تملك سلطة التشريع دون الرجوع الى شريعـة الله .. أي أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) او باسم كائن من كان .. ذلـك ان الحاكميـة العليا لا تكون الا لله سبحانـه ، ولا تزاول الا بالطريقـة التي بلغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانيـة في أرجـاء الارض جميعا .. تدخل فيه هذه المجتمعات اولا : بتصورها الاعتقادي المحرف ، الذي لا يفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك ، سواء بالبنوة او بالتثليث ، او يتصور اللـه سبحانه عـلى غير حقيقته ، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها :

« وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالـت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قـول الذين كفروا من قبل . قاتلهـم الله ، أنى يؤفكـون ؟ » .. (التوبة : ٣٠) .

« لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة . وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذيـن كفروا منهم عذاب اليم » ... (المائدة : ٧٣) .

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت ايديهـم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفـق كيف يشاء » ... (المائدة : ٦٤) .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحبّاؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل انتم بشر ممـن خلق » ... (المائدة : ١٥) .

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بانظمتها وشرائعها ، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده ، بالاقرار له وحده بحق الحاكمية ، واستمداد السلطان من شرعه ، بل تقيم هيئات من البشر ، لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون الا لله سبحانه .. وقديما وصمهم الله بالشرك لانهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان ، يشرعون لهم من عند انفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه :

« اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ـ والمسيح بن مريم ـ وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا . لا اله الا هو . سبحانه عما يشركون » ..

وهم لم يكونوا يعتقدون في الوهية الاحبار والرهبان . ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية ، انماكانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم ، بما لم يأذن به الله ، فأولى ان يوصموا اليوم بالشرك والكفر ، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا احبارا ولا رهبانا .. وكلهم سواء ..

وأخيرا يدخل في اطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها انها « مسلمة » ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الاطار لانها تعتقد بألوهية احد غير الله ، ولا لانها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل في هذا الاطار لانها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها . فهي ـ وان لم تعتقد بألوهية أحد الا الله ـ تعطي أخص خصائص الالوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه

الحاكمية نظامها ، وشرائعها وقيمها ، وموازينهـا ، وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريبا ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » ..
(المائدة : ٤٤)

ويقول عن المحكومين :

« ألم تر الى الذين **يزعمون** انهم آمنوا بما انزل اليك وما أنزل من قبلك **يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت . وقد امروا ان يكفروا به** » الى أن يقول : « فلا وربك **لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ..
(النساء : ٦٠ ـ ٦٥)

كما انه ـ سبحانه ـ قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ الاحبار والرهبان اربابا من دونه ، لمجرد ان جعلوا للاحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن انفسهم انهم « مسلمون » لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى بن مريم ربا يؤلهونه ويعبدونه سواء . فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده ، فهي خروج من دين الله ، ومن شهادة ان لا اله الا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة « علمانيته » وعدم علاقته بالدين أصلا ، وبعضها يعلن أنه « يحترم الدين » ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي اصلا ، ويقول : انه ينكر « الغيبية » ويقيم نظامه على « العلمية » باعتبار ان العلمية

تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول به الا الجهال (١)
وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء
ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هـذه شريعة الله ! ..
وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

واذا تعين هذا ، فان موقف الاسلام من هذه المجتمعات
الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة :

انه يرفض الاعتراف باسلامية هـذه المجتمعات كلها
وشرعيتها في اعتباره .

ان الاسلام لا ينظر الى العنوانات واللافتات والشارات
التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. انها كلها تلتقي
في حقيقة واحدة .. وهي ان الحياة فيها لا تقوم على
العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي ـ مع سائر
المجتمعات الاخرى ـ في صفة واحدة .. صفة « الجاهلية »..

***

وهذا يقودنا الى القضية الاخيرة وهي منهج الاسلام في
مواجهة الواقع البشري كله .. اليوم وغدا والى آخر
الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الاولى عن « طبيعة
المجتمع المسلم » ، وقيامه على العبودية لله وحده في امره
كله .

ان تحديد هذه الطبيعة يجيب اجابة حاسمة عن هذا
السؤال :

ـ ما الاصل الذي ترجع اليه الحياة البشرية وتقوم

---

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » في الجزء السابع من الظلال .

عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أيا كان ؟

ان الاسلام يجيب على هــذا السؤال اجابة حاسمــة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة ·· ان الاصل الذي يجب ان ترجع اليه الحياة البشرية بجملتها هو دين اللــه ومنهجــه للحياة ·· ان شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله التي هي ركن الاسلام الاول ، لا تقوم ولا تؤدى الا ان يكــون هذا هو الاصل ·· وان العبودية لله وحــده مع التلقي فــي كيفية هذه العبودية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تتحقق الا أنَ يعترف بهذا الاصل ، ثم يتبع اتباعا كامــلا بلا تلعثم ولا تردد :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »

(الحشر : ٧)

ثم ان الاسلام يسأل :

« أأنتم أعلم أم الله ؟ » ··

ويجيب :

« والله يعلم وانتم لا تعلمون » ·· « وما أوتيتم مــن العلم الا قليلا » ··

والذي يعلم ـ والذي يخلق ويرزق كذلك ـ هــو الذي يحكم ·· ودينه الذي هو منهجه للحياة ، هــو الاصل الــذي ترجع اليه الحياة ·· اما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهــم فهي تفسد وتنحرف ، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون، والذين لم يؤتوا من العلم الا قليلا ! ·

ودين الله ليس غامضا ، ومنهجه للحياة ليس مائعا ··

فهو محدد بشطر الشهادة الثاني : محمد رسول الله ، فهو محصور فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من النصوص في الاصول .. فان كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وان لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد ـ وفق اصوله المقررة في منهج الله ذاته . لا وفق الاهواء والرغبات ـ :

« فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » ..
(النساء : ٥٩)

والاصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد ان يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، الا ان تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وان يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر ، وأن يرجع الى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله ولا يكون هذا لكل من يريد ان يدعي سلطانا باسم الله . كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم « الثيوقراطية » أو « الحكم المقدس » فليس شيء من هذا في الاسلام . وما يملك أحد ان ينطق باسم الله الا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله ..

ان كلمة « الدين للواقع » يساء فهمها ، ويساء استخدامها كذلك . نعم ان هذا الدين للواقع . ولكن أي واقع !

.. انه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه ، وفق منهجه ، منطبقا على الفطرة البشرية في سوائها ، ومحققا للحاجات الانسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق ، والذي يعلم من خلق :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ! » (الملك :١٤)

والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقره ويبحث لـــه عن سند منه ، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة ! انما يواجه الواقع ليزنه بميزانه ، فيقر منـــه ما يقر ، ويلغي منه ما يلغي ، وينشيء واقعا غيره ان كان لا يرتضيه ، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بان الاسلام : « دين للواقع » .. أو ما يجب ان تعنيه في مفهومها الصحيح !

ولعله يثار هنا سؤال :

« أليست مصلحـــة البشر هي التي يجب ان تصـــوغ واقعهم ؟ » !

ومرة اخرى نرجع الى السؤال الذي يطرحه الاســـلام ويجيب عليه :

ـ « أأنتم أعلم أم الله » ؟

ـ « والله يعلم وانتم لا تعلمون » !

ان مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أنزله الله، وكما بلغه عنه رسول الله .. فاذا بدا للبشر ذات يـــوم ان مصلحتهم فـــي مخالفة ما شرع الله لهـــم ، فهم .. اولا : « واهمون » فيما بدا لهم .

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهـــم الهدى ، ام للانسان مـــا تمنى ؟ فلله الآخـــرة والاولى » ...

(النجم : ٢٣ ـ ٢٥)

وهم .. ثانيا : « كافرون » .. فمـــا يدعـــي أحد ان المصلحة فيما يراه هو مخالفـــا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين !

شَرِيعَةٌ كَوْنِيَّة

ان الاسلام حين يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده ، ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء ، باعتبار ان هذه العبودية الكاملة لله وحده - في صورتها هذه - هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله الا الله .. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة ان محمدا رسول الله ...

ان الاسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الاساس ، بحيث تمثل شهادة ان لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله منهج الحياة في الاسلام ، وتصور ملامح هذا المنهج ، وتقرر خصائصه .. ان الاسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الانظمة الاخرى التي عرفتها البشرية .. انما يرجع الى أصل أشمل في تقريره عن الوجود كله ، لا عن الوجود الانساني وحده ، والى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الانسانية وحدها .

ان التصور الاسلامي يقوم على أساس ان هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت ارادة الله الى كونه فكان ، وأودعه الله - سبحانه - قوانينه التي يتحرك بها ، والتي تتناسق بها حركة اجزائه فيما بينها ، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء :

« انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له : كن فيكون » . (النمل : ٤٠)

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » .. (الفرقان : ٢).

ان وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره ، وقدرا يحركه ، وناموسا ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركاتها جميعا ، فلا تصطدم ، ولا تختل ، ولا تتعارض ، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة ـ الى ما شاء الله ـ كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره ، والقدر الذي يحركه ، والناموس الذي ينسقه ، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة ، او ان يتنكر للقدر ، أو أن يخالف الناموس وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد الا ان يشاء الله :

« ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام، ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . الا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين » .. (الاعراف : ٥٤)

***

والانسان من هذا الوجود الكوني ، والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله ـ كما خلق هذا الوجود ـ وهو في تكوينه المادي من طين هذه الارض ، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه انسانا ، انما رزقه الله اياه مقدرا تقديرا ، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنّه الله له ـ رضي أم

أبى ــ يعطي وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه ــ فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان ان يعطيا جنين وجوده ــ وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة ٠ وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له ٠ وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، يأكل ويشرب ، ويمثل الطعام والشراب ٠٠ وبالجملة يعيش ٠٠ وفق ناموس الله ، عن غير ارادة منه ولا اختيار ، شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه ، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه ٠٠٠

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الانسان ، والذي أخضع الانسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني ٠٠ هو ــ سبحانه ــ الذي سن للانسان « شريعة » لتنظيم حياته الارادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية ٠ فالشريعة ــ على هذا الاساس ــ ان هي الا قطاع من الناموس الالهي العام الذي يحكم فطرة الانسان ، وفطرة الوجود العام ، وينسقها كهلا جملة واحدة ٠

وما من كلمة من كلمات الله ، ولا امر ولا نهي ، ولا وعد ولا وعيد ، لا تشريع ولا توجيه ٠٠٠ الا هي شطر من الناموس العام ، وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية ــ اي القوانين الالهية الكونية ــ التي نراها تتحقق في كل لحظة ، بحكم ما في طبيعتها من حق ازلي أودعه الله فيها ، وهي تتحقق بقدر الله ٠

و « الشريعة » التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي ــ من ثم ــ شريعة كونية ٠ بمعنى انها متصلة بناموس الكون العام ، ومتناسقة معه ٠٠ ومن ثم فان الالتزام بها ناشيء

من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الانسان ، وحركة الكون الذي يعيش فيه ·· بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة · وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للانسان ··

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام ـ ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له ـ رضوا أم أبوا ـ فانهم ـ من ثم ـ لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاما يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة · انما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ، ومدبر أمره وأمرهم ، وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه ·

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق ·· وذلك فوق وجوبه لتحقق الاسلام اعتقادا · فلا وجود للاسلام في حياة فرد او حياة جماعة ، الا باخلاص العبودية لله وحده ، وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده ، تحقيقا لمدلول ركن الاسلام الاول : شهادة ان لا إله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ·

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر ، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد ·· انهم ـ في هذه الحالة وحدها ـ يعيشون في سلام مع أنفسهم ·· فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه ·· واما السلام مع انفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة ، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته ، لان شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة ، في

يسر وهدوء .. وينشأ عن هـــذا التنسيق تنسيق آخر فـي ارتباط الناس ونشاطهم العام ، لانهم جميعــا يسلكون حينئذ وفق منهج موحد ، هو طرف من الناموس الكوني العام .

كذلك يتحقق الخير للبشريـــة عن طريق اهتدائهـــا وتعرفها في يسر الى أسرار هذا الكون ، والطاقــات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في اطوائه ، واستخدام هذا كله وفــق شريعة الله ، لتحقيق الخير البشري العام ، بلا تعارض ولا اصطدام .

ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن » ... (المؤمنون : ٧١)

ومن ثم توحد النظرة الاسلامية بـين الحق الـذي يقوم عليه هذا الدين ، والحق الذي تقوم عليه السماوات والارض ، ويصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، ويحاسب الله بـه ويجازي من يتعدونه .. فهو حق واحد لا يتعدد ، وهـــو الناموس الكوني العام الذي اراده الله لهـــذا الوجـــود في جميـــع الاحوال ، والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم واشياء وأحياء .

« لقد أنزلنـــا اليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون ! وكم قصمنـــا من قرية كـــانت ظالمة وأنشأنا بعدهـا قومـا آخرين . فلما أحسوا بأسنا اذا هـــم منهـــا يركضون . لا تركضوا وارجعـــوا الى ما أترفتـــم فيه ومساكنكم لعلكـــم تسألون . قالوا : يا ويلنـــا انا كنا ظالمـين ! فمـا زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين . وما خلقنـا السمـاء والارض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهـــوا لاتخذناه من لدنا .. ان كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق عـلى الباطل

فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ٠ وله من في السماوات والارض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ٠ يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ٠٠٠

(الانبياء : ١٠ ـ ٢٠)

وفطرة الانسان تدرك هذا الحق في اعماقها ، فطبيعة تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله ، توحي الى فطرته بان هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق اصيل فيه ، وأنه ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل، ولا تختلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة ، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة ! انما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا ٠٠ ومن ثم يقع الشقاق ـ اول ما يقع ـ بين الانسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في اعماقها ، تحت تأثير هواه ، وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله ، وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه !

ومثل هذا الشقاق يقع بين الافراد والجماعات والامم والاجيال ، كما يقع بين البشر والكون من حولهم ، فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء ، بدلا من أن تكون وسائل عمران واسباب سعادة لبني الانسان ٠

واذن فان الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الارض ليس مجرد العمل للآخرة ٠ فالدنيا والآخرة معا مرحلتان متكاملتان ، وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الانسان ، تنسق الحياة كلها مع الناموس الالهي العام ٠

والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس الى

الآخرة ، بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الاولى كذلك ، ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة ·

***

هذا هو أساس التصور الاسلامي للوجود كله ، وللوجود الانساني في ظل ذلك الوجود العام ، وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافا جوهريا عن كل تصور آخر عرفته البشرية ، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الانظمة والنظريات ··

ان الالتزام بشريعة الله ـ في هذا التصور ـ هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون ، وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون ، ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم حياة بني الانسان ، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده ، كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدّعيها لنفسه انسان ·

والى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذي جرى بين ابراهيم ـ عليه السلام ـ ابي هذه الامة المسلمة ـ وبين « نمرود » المتجبر المدعي بحق السلطان على العباد في الارض ، والذي لم يستطع ـ مع ذلك ـ ان يدعي بحق السلطان على الافلاك والاجرام في الكون ، وبهت امام ابراهيم عليه السلام ، وهو يقول له : ان الذي يملك السلطان في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة البشر ، ولم يحر جوابا على هذا البرهان :

« ألم تر الى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ـ ان آتاه الله الملك ـ اذ قال ابراهيم : ربي الذي يحيي ويميت · قال : انا

أحيي وأميت ! قال ابراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ·· فبهت الذي كفر · والله لا يهدي القوم الظالمين » ·· (البقرة : ٢٥٨)

وصدق الله العظيم :

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ » ··

(آل عمران : ٨٣)

*

الإسلامُ هُوَ الحَضَارَة

الاسلام لا يعرف الا نوعين اثنـــين من المجتمعات ٠٠٠ مجتمع اسلامي ، ومجتمع جاهلي ٠٠

« المجتمع الاسلامي » هــو المجتمع الذي يطبــق فيـــه الاسلام ٠٠ عقيدة وعبادة ، وشريعة ونظاما ، وخلقـــا وسلوكا ٠٠ و « المجتمع الجاهلي » هو المجتمع الذي لا يطبق فيـــه الاسلام ، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته ، وقيمه وموازينـــه ، ونظامه وشرائعه ، وخلقه وسلوكه ٠٠

ليس المجتمع الاسلامي هــــو الذي يضم ناسا ممـــن يسمون انفسهم « مسلمين » ، بينما شريعة الاسلام ليســت هي قانون هــــذا المجتمع ، وان صلى وصام وحــج البيــت الحرام ! وليس المجتمـــع الاسلامي هــو الذي يبتــدع لنفسه اسلاما من عند نفسه ــ غير ما قرره الله سبحانــه وفصّله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويسميـــه مثلا « الاســـلام المتطور » !

و « المجتمع الجاهلي » قد يتمثل في صور شتى ــ كلها جاهلية ــ :

قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعـــالى ، ويفسر التاريخ تفسيرا ماديا جدليا ، ويطبق مـــا يسميـــه « الاشتراكية العلمية » نظاما ٠

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعـــالى ، ولكن

يجعل له ملكوت السماوات ، ويعزله عن ملكوت الارض ، فلا يطبق شريعته في نظام الحياة ، ولا يحكّم قيمـه التي جعلها هو قيما ثابتة في حياة البشر ، ويبيح للناس ان يعبدوا الله في البيَع والكنائس والمساجد ، ولكنه يحرّم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم ، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الارض ، التي ينص عليها قوله تعالى :

« وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله » ..
(الزخرف : ٨٤)

ومن ثم لا يكون هذا المجتمع في دين الله الذي يحدده قوله :

« ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه .. ذلك الدين القيم » .. (يوسف : ٨٤)

وبذلك يكون مجتمعا جاهليا ، ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله ، في البيَع والكنائس والمساجد .

« المجتمع الاسلامي » ـ بصفته تلك ـ هو وحده « المجتمع المتحضر » ، والمجتمعات الجاهلية ـ بكل صورها المتعددة ـ مجتمعات متخلفة ! ولا بد من ايضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد اعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان : « نحو مجتمع اسلامي متحضر » .. ثم عدت في الاعلان التالي عنه فحذفت كلمة « متحضر » مكتفيا بأن يكون عنوان البحث ـ كما هو موضوعه ـ « نحو مجتمع اسلامي » ..

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتبه

بالفرنسية) ففسره على أنه ناشيء من « عملية دفاع نفسية داخلية عن الاسلام » وأسف لان هذه العملية ـ غير الواعية ـ تحرمني مواجهة « المشكلة » على حقيقتها !

انا أعذر هذا الكاتب .. لقد كنت مثله من قبل .. كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن .. عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لاول مرة !.. وكانت المشكلة عندي ـ كما هي عنده اليوم ـ هي مشكلة : « تعريف الحضارة » !

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي ، وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية .. غريبة على حسي الاسلامي .. وعلى الرغم من اتجاهي الاسلامي الواضح في ذلك الحين ، الا أن هذه الرواسب كانت تغبّش تصوري وتطمسه ! كان تصور « الحضارة » ـ كما هو الفكر الاوروبي ـ يخايل لي ، ويغبش تصوري ، ويحرمني الرؤية الواضحة الاصيلة ،

ثم انجلت الصورة .. « المجتمع المسلم » هو « المجتمع المتحضر » . فكلمة « المتحضر » اذن لغو ، لا يضيف شيئا جديدا .. على العكس تنقل هذه الكلمة الى حس القارىء تلك الظلال الاجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوري ، وتحرمني الرؤية الواضحة الاصيلة !

الاختلاف اذن هو على « تعريف الحضارة » .. ولا بد من ايضاح اذن لهذه الحقيقة !

***

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده ـ متمثلة في سيادة الشريعة الالهية ـ تكون هذه هي الصورة الوحيدة

التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر .. وتكون هذه هي « الحضارة الانسانية » لان حضارة الانسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للانسان ، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية ـ في الحقيقة ـ ولا كرامة للانسان ـ ممثلا في كل فرد من افراده ـ في مجتمع بعضه ارباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون !

ولا بد ان نبادر فنبيّن ان التشريع لا ينحصر فقط في الاحكام القانونية ـ كما هو المفهوم الضيق في الاذهان اليوم لكلمة الشريعة ـ فالتصورات والمناهج ، والقيم والموازين ، والعادات والتقاليد ... كلها تشريع يخضع الافراد لضغطه . وحين يصنع الناس ـ بعضهم لبعض ـ هذه الضغوط ، ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع ، لا يكون هذا المجتمع متحررا ، انما هو مجتمع بعضه ارباب وبعضه عبيد ـ كما أسلفنا ـ وهو ـ من ثم ـ مجتمع متخلف .. أو بالمصطلح الاسلامي .. « مجتمع جاهلي » !

والمجتمع الاسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد ، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل ، الذي ترتكز اليه حضارة الانسان ، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له ، وهو يعلن خلافته في الارض عنه ، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الاعلى ..

***

وحين تكون آصرة التجمع الاساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة ، ويكون هذا كله صادرا من إله واحد ، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر ،

وليس صادرا من أرباب أرضيـــة تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ·· يكون ذلك التجمع ممثلا لأعلى مـــا في « الانسان » من خصائص ·· خصائص الروح والفكر ·· فأما حـين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقـــوم والارض ··· وما الى ذلك من الروابط ، فظـــاهر ان الجنس واللـون والقوم والارض لا تمثـــل الخصائص العليـــا للانسان ·· فالانسان يبقى انسانا بعد الجنس واللون والقوم والارض ، ولكنه لا يبقى انسانا بعـــد الروح والفكر ! ثم هـــو يملك ـ بمحض ارادته الحرة ـ ان يغير عقيدته وتصـــوره وفكره ومنهج حياته ، ولكنه لايملك أن يغير لونه ولا جنسه ، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في ارض ·· فالمجتمـع الذي يتجمع فيه النـــاس على امر يتعلـق بارادتهـــم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمـــع المتحضر ·· اما المجتمـــع الذي يتجمع فيه الناس على امر خارج عن ارادتهم الانسانيـة فهو المجتمع المتخلف ·· أو بالمصطلـح الاسلامي ·· هـــو « المجتمع الجاهلي » !

والمجتمع الاسلامي وحـــده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الاساسية ، والذي تعتبر فيـــه العقيدة هي الجنسيـــة التي تجمـــع بين الاسود والابيض والاحمـر والاصفر والعـــربي والرومي والفـــارسي والحبشي وســـائر أجناس الارض فـــي أمة واحدة ، ربهـــا الله ، وعبوديتها لـــه وحده ، والأكرم فيها هـــو الاتقى ، والكل فيهـــا أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ، ولم يشرعه أحد من العباد !

***

وحين تكون « انسانية » الانسان هي القيمـــة العليا في مجتمع ، وتكون الخصائص « الانسانية » فيـــه هي موضع التكريم والاعتبار ، يكون هذا المجتمع متحضرا ·· فأما حـين

تكون « المادة » ـ في أية صورة ـ هي القيمة العليا ·· سواء في صورة « النظرية » كما في التفسير الماركسي للتاريخ ! أو في صور « الانتاج المادي » كما في امريكا واوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الانتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الانسانية ·· فان هذا المجتمع يكون مجتمعا مختلفا ·· أو بالمصطلح الاسلامي مجتمعا جاهليا !

ان المجتمع المتحضر ·· الاسلامي ·· لا يحتقر المادة ، لا في صورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه ايضا) ولا في صور « الانتاج المادي » · فالانتاج المادي من مقومات الخلافة في الارض عن الله ـ ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص « الانسان » ومقوماته !·· وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته · وتهدر فيها قاعدة « الاسرة » ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ·· الى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الانتاج المادي !

وحين تكون « القيم الانسانية » و « الاخلاق الانسانية » التي تقوم عليها ، هي السائدة في مجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضرا · والقيم الانسانية والاخلاق الانسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيما « متطورة » متغيرة متبدلة ، لا تستقر على حال ولا ترجع الى أصل ، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ ، وكما تزعم « الاشتراكية العلمية » !

انها القيم والاخلاق التي تنمي في الانسان خصائص الانسان التي يتفرد بها دون الحيوان ، والتي تغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزوه عن الحيوان ، وليست هي القيم

والاخلاق التي تنمي فيه وتغلب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان ٠

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم « وثابت » لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها « التطوريون » ! و « الاشتراكيون العلميون » !

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الاخلاقية ، انما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت ٠٠ عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق « زراعية » واخرى « صناعية » ! ولا قيم وأخلاق « رأسمالية » واخرى « اشتراكية » ، ولا قيم وأخلاق « برجوازية » واخرى « صعلوكية » ! ولا تكون هناك اخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة ٠٠ الى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية ٠٠ انما تكون هناك ـ من وراء ذلك كله ـ قيم واخلاق « انسانية » وقيم واخلاق « حيوانية » ـ اذا صح هذا التعبير ! ـ أو بالمصطلح الاسلامي : قيم وأخلاق « اسلامية » وقيم واخلاق « جاهلية » ٠

ان الاسلام يقرر قيمه واخلاقه هذه « الانسانية » ـ اي التي تنمي في الانسان الجوانب التي تفرقه وتميزه عن الحيوان ـ ويمضي في انشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة ام في طور الصناعة ، وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي او مجتمعات حضرية مستقرة ، وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة او غنية ٠٠ انه يرتقي صعدا بالخصائص الانسانية ، ويحرسها من النكسة الى الحيوانية ٠٠ لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني الى المرتفع الانساني ٠٠ فاذا انتكس

هذا الخط ـ مع حضارة المادة ـ فلن يكون ذلك حضـــارة ! انما هو « التخلف » او هو « الجاهلية » !

***

وحين تكون « الاسرة » هي قاعـــدة المجتمع • وتقـوم هذه الاسرة عـــلى أساس « التخصص » بـــين الزوجين في العمل • وتكون رعاية الجيـــل الناشىء هي أهـم وظـائف الاسرة •• يكون هـــذا المجتمع متحضرا •• ذلك ان الاسرة على هذا النحو ـ في ظـــل المنهج الاسلامي ـ تكون هي البيئة التي تنشأ وتنمى فيها القيم والاخـــلاق « الانسانية » التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة ، ممثلة في الجيـــل الناشىء ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحـــدة أخرى غير وحدة الاسرة ، فأما حين تكون العلاقـــات الجنسية (الحرة كمـا يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعـــدة المجتمع •• حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال ، لا عـــلى أساس الواجب والتخصص الوظيفي فـي الاسرة •• حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغوايـــة والفتنـــة •• وحين تتخـــلى المرأة عن وظيفتها الاساسية في رعاية الجيـــل الجديد ، وتؤثر هي ـ أو يؤثر لها المجتمع ـ ان تكون مضيفة في فندق او سفينـــة أو طائرة ! •• حـين تنفق طاقتهـا في « الانتاج المادي » و « صنـاعـة الادوات » ولا تنفقهـــا فـي « صناعة الانسانية » ! لان الانتاج المادي يومئذ اغـــلى وأعز واكرم من « الانتاج الانساني » ، عندئـــذ يكون هنا هـــو « التخلف الحضاري » بالقياس الانساني •• او تكـــون هي « الجاهلية » بالمصطلح الاسلامي !

وقضية الاسرة والعلاقات بين الجنسين قضيـــة حاسمة في تحديد صفة المجتمع •• متخلف ام متحضر ، جـــاهلي أم

اسلامي ! ٠٠ والمجتمعات التي تسود فيهـا القيم والاخـلاق والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن ان تكون مجتمعات متحضرة ، مهمـا تبلغ من التفوق الصنـاعي والاقتصـادي والعلمي ! ان هذا المقياس لا يخطىء فـي قياس مدى التقدم « الانساني » ٠٠

وفي المجتمعـات الجاهليـة الحديثة ينحسر المفهـوم « الاخلاقي » بحيث يتخلى عن كـل ما له علاقـة بالتميـز « الانساني » عن الطابع « الحيواني » ! ففي هـذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ ولا حـتى العلاقات الجنسية الشاذة ـ رذيلة اخلاقية ٠٠ ان المفهوم الاخلاقـي يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية ـ والسياسية احيانـا في حدود « مصلحة الدولة » ـ ففضيحـة كريستـين كيلر وبروفيمو الوزير الانجليزي ـ مثلا ـ لم تكن في عرف المجتمع الانجليزي فضيحة بسبب جانبهـا الجنسي ٠٠ انما كانـت فضيحة لان كريستين كيلر كانـت صديقـة كذلك للملحـق البحري الروسي ومن هنا يكون هناك خطر عـلى أسرار الدولة في علاقة الوزير بهذه الفتاة ! وكذلك لانه افتضح كذبه على البرلمان الانجليزي ! والفضائح المماثلة في مجلس الشيوخ الامريكي ، وفضائح الجواسيس والموظفين الانجليز والامريكان الذين هربوا الى روسيـا ٠ انها ليست فضائـح بسبب شذوذهم الجنسي ! ولكن بسبب الخطر على اسرار الدولـة !

والكتّاب والصحفيـون والروائيـون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : ان الاتصالات (الحرة) ليست رذائل اخلاقيـة ٠ الرذيـلة الاخلاقية ان يخدع الفتى رفيقته او تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود ، بل الرذيلة ان تحافظ الزوجة عـلى عفتهـا اذا كانت شهوة الحب لزوجها قـد خمدت ! والفضيلـة ان

تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة ! ‥ عشرات من القصص هذا محورها ! ومثات التوجيهات الاخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه ايحاءاتها ‥

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة ‥ غير متحضرة ‥ من وجهة نظر « الانسان » وبمقياس خط التقدم « الانساني » ‥

ان خط التقدم الانساني يسير في اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانية ، وحصرها في نطاق « الاسرة » على أساس « الواجب » لتؤدي بذلك « وظيفة انسانية » ليست اللذة غايتها ، وانما هي اعداد جيل انساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة « الانسانية » التي يميزها بروز الخصائص الانسانية ‥ ولا يمكن اعداد جيل يترقى في خصائص الانسان ، ويبتعد عن خصائص الحيوان ، الا في محضن اسرة محوطة بضمانات الامن والاستقرار العاطفي ، وقائمة على اساس الواجب الذي لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة · وفي المجتمع الذي تنشئه تلك التوجيهات والايحاءات الخبيثة المسمومة ، والذي ينحسر فيه المفهوم الاخلاقي ، فيتخلى عن كل آداب الجنس ، لا يمكن ان يقوم ذلك المحضن الانساني ‥

من اجل ذلك كله تكون القيم والاخلاق والايحاءات والضمانات الاسلامية هي اللائقة بالانسان · ويكون « الاسلام هو الحضارة » ويكون المجتمع الاسلامي هو المجتمع المتحضر ‥ بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع او لا « يتطور » ·

***

واخيرا فانه حين يقوم « الانسان » بالخلافة عن « الله » في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص

من العبودية لغيره ، وان يحقق منهج الله وحـــده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره ، وان يحكم شريعة الله وحدهـا في حياته كلها وينكر تحكيم شريعـــة سواهـــا ، وان يعيش بالقيم والاخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والاخـلاق المدعاة • ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله الى النواميس الكونيـة التي أودعها الله هذا الكون المادي ، ويستخدمهـــا في ترقية الحياة ، وفي استنباط خامات الارض وأرزاقهـــا وأقواتهـــا التي أودعها الله اياهـا ، وجعـل تلك النواميس الكونيـــة اختامها ، ومنح الانسان القدرة على فض هذه الاختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافـــة •• أي حين ينهض بالخلافـة في الارض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهـو يفجر ينابيـــع الرزق ، ويصنّع المادة الخامة ، ويقيم الصناعات المتنوعـة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنيـــة التي حصل عليها الانسان في تاريخه كله •• حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانيا » يقوم بالخلافة عن الله عـــلى هذا النحو ــ عبـادة لله • يومئذ يكون هذا الانسان كامل الحضارة ، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة •• فأما الابداع المادي ــ وحـده ــ فلا يسمى في الاسلام حضارة •• فقد يكون وتكون معـه الجاهلية •• وقد ذكر الله من هذا الابداع المادي فـي معرض وصف الجاهلية نماذج :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثـــون ؟ وتتخذون مصانـــع لعلكم تخلدون ! واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقـــوا الله وأطيعون • واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون • أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » •
(الشعراء : ١٢٧ ــ ١٣٥)

« اتتركون فيما ها هنـــا آمنـين ؟ في جنـات وعيون ، وزروع ونخل طلعهـا هضيم ، وتنحتون من الجبـــال بيوتا

فارهين ؟ فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعــوا امــر المسرفين ، الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون » .

(الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٢)

« فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فاذا هم مبلســون فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » ...

(الانعام : ٤٣ ـ ٤٥)

« حتى اذا أخــذت الارض زخرفها وازيّنت وظن أهلهــا انهم قادرون عليها أتاها امرنا ليلا أو نهارا فجعلناهــا حصيدا كان لم تغن بالامس » .

(يونس : ٢٤)

ولكن الاسلام ـ كما أسلفنا ـ لا يحتقر المــادة ، ولا يحتقر الابداع المادي ، انما هـــو يجعل هذا اللون من التقدم ـ في ظل منهج الله ـ نعمة من نعم الله على عباده ، يبشرهم به جزاء على طاعته :

« فقلت : استغفروا ربكم ، انه كان غفّارا ، يرســـل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنــين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » ...

(نوح : ١٠ ـ ١٢)

« ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السمـــاء والارض ، ولكن كـــذبوا فأخذناهم بما كانــوا يكسبون » ...

(الاعراف : ٩٦)

المهم هو القاعدة التي يقوم عليهـــا التقدم الصناعي ، والقيم التي تسود المجتمـــع ، والتي يتالف مـــن مجموعها خصائص الحضارة « الانسانية » ..

***

وبعد ‥ فان قاعدة انطلاق المجتمع الاسلامي ، وطبيعة تكوينه العضوي ، تجعلان منه مجتمعا فريدا لا تنطبق عليه اية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي ‥ المجتمع الاسلامي وليد الحركة، والحركة فيه مستمرة ، وهي التي تعين أقدار الاشخاص فيه وقيمهم ، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم ٠

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الارضي ، ومن خارج المحيط البشري ‥ انها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر ، تنشىء لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، وتحدد لهم منهجا للعمل يترجم هذا التصور ‥ الدفعة الاولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون ‥ انها ـ كما قلنا ـ آتية لهم من خارج النطاق الارضي ، ومن خارج المحيط البشري ‥ وهذا هو المميز الاول لطبيعة المجتمع الاسلامي وتركيبه ٠

انه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الانسان وعن محيط الكون المادي ٠

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن احد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ، ودون ان يكون للانسان يد فيه ـ في ابتداء الامر ـ تبدأ اولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الاسلامي ، ويبدأ معها عمل « الانسان » أيضا ٠ انسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي ، الجارية بقدر الله وحده ٠ وحين يؤمن هذا الانسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الاسلامي (حكما) ‥ ان الانسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه ‥ انه سينطلق بها ‥ هذه طبيعتها ‥ طبيعة الحركة الحية ‥ ان القوة العليا التي دفعت بها الى هذا القلب تعلم انها

ستتجاوزه حتما ! ·· ان الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة الى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما ·

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فان هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : انتم الان مجتمع ، مجتمع اسلامي مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الاساسية ـ القيم التي أسلفنا الاشارة اليها ـ وهنا يكون المجتمع الاسلامي قد وجد (فعلا) !

والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون الفا ، والالف يصبحون اثني عشر الفا ·· ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الاسلامي !

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته ، عن المجتمع الجاهلي ـ الذي اخذ منه افراده ـ وتكون الحركة من نقطة الانطلاق الى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من افراد هذا المجتمع ، واعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع ـ حسب الميزان والاعتبار الاسلامي ـ ويكون وزنه هذا معترفا له به من المجتمع دون ان يزكي نفسه أو يعلن عنه بل ان عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الانظار المتطلعة اليه في البيئة !

ولكن « الحركة » التي هي طابع العقيدة الاسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها ، لا تدع احدا يتوارى ! ان كل فرد من افراد هذا المجتمع لا بد ان يتحرك ! الحركة في عقيدته ، والحركة في دمه ، والحركة في مجتمعه ، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي ·· ان الجاهلية من حوله ،

وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله ، والمعركة مستمرة ، والجهاد ماض الى يوم القيامة ٠

على ايقاعات الحركة ، وفي اثناء الحركة ، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع ، وتتحدد وظيفته ، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة افراده ومجموعة وظائفه ٠

هذه النشأة ، وهذا التكوين ، خاصيتان من خصائص المجتمع الاسلامي تميزانه ، تميزان وجوده وتركيبه ، وتميزان طابعه وشكله ، وتميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام ايضا ، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة ، لا تعالج بمفهومات اجتماعية اجنبية عنها ، ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ، ولا تنفذ باجراءات مستمدة من نظام آخر !

***

ان المجتمع الاسلامي ــ كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة ــ ليس مجرد صورة تاريخية ، يبحث عنها في ذكريات الماضي ، انما هو طلبة الحاضر وامل المستقبل ٠ انه هدف يمكن ان تستشرفه البشرية كلها اليوم وغدا ، لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها ، سواء في هذه الجاهلية الامم المتقدمة صناعيا واقتصاديا والامم المتخلفة ايضا ٠

ان تلك القيم التي اشرنا اليها اجمالا هي قيم انسانية ، لم تبلغها الانسانية الا في فترة « الحضارة الاسلامية » ٠ (ويجب ان ننبه الى ما نعنيه بمصطلح « الحضارة الاسلامية » ٠٠ انها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم ، وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي او علمي مع تخلف القيم عنها) ٠

وهذه القيم ليست « مثالية خيالية » انما هي قيم واقعية عملية ، يمكن تحقيقها بالجهد البشري ـ في ظل المفهومات الاسلامية الصحيحة ـ ، يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائدة فيها ، وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي •• فهي لا تعارض ـ بل تشجع بالمنطق العقيدي ذاته ـ التقدم في كافة حقول الخلافة ، ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين في البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد • ان الحضارة يمكن ان تقوم في كل مكان وفي كل بيئة •• تقوم بهذه القيم • اما اشكالها المادية التي تتخذها فلا حد لها ، لانها في كل بيئة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلا وتنميها •

المجتمع الاسلامي اذن ـ من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه ـ ليس صورة تاريخية ثابتة ، لكن وجوده وحضارته يرتكنان الى قيم تاريخية ثابتة •• وحين نقول : « تاريخية » لا نعني الا ان هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين •• والا فهي ليست من صنع التاريخ ، ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها •• انها حقيقة جاءت الى البشرية من مصدر رباني •• من وراء الواقع البشري • ومن وراء الوجود المادي أيضا •

والحضارة الاسلامية يمكن ان تتخذ اشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي ، ولكن الاصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة ، لانها هي مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده • والتجمع على آصرة العقيدة فيه • واستعلاء انسانية الانسان على المادة • وسيادة القيم الانسانية التي تنمي انسانية الانسان لا حيوانيته •• وحرمة الاسرة • والخلافة في الارض على عهد الله وشرطه •• وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة) ••

ان « أشكال » الحضارة الاسلامية التي تقوم على هـذه الاسس الثابتة ، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي ، لانها تستخدم الموجود منها فعلا في كل بيئـة ٠٠ ومن ثم لا بد ان تختلف اشكالها ٠٠ لا بد ان تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الاطار الاسلامي ، والتكيف بالقيم والمقومات الاسلامية ٠٠ وهـذه المرونة ـ في الاشكال الخارجية للحضارة ـ ليست مفروضة على العقيدة الاسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة انمـا هي من طبيعتهـا ٠ ولكن المرونة ليست هـي التميع ٠٠ والفرق بينهما بعيد جدا !

لقد كان الاسلام ينشيء الحضارة في أواسط افريقية بين العراة ٠٠ لانه بمجرد وجوده هنـاك تكتسي الاجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللبـاس التي يتضمنهـا التوجيه الاسلامي المباشر ، ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد الى نشاط العمل الموجه لاستغـلال كنوز الكون المـادي ، ويخرجون كذلك مـن طـور القبيلة ـ أو العشيرة ـ الى طور الامـة ، وينتقلون من عبـادة الطوطم المنعزلة الى عبادة رب العالمين ٠٠ فما هي الحضارة ان لـم تكن هي هذا ؟ ٠٠ انها حضارة هذه البيئة ، التي تعتمد على امكانياتها القائمة فعلا ٠٠ فأما حين يدخل الاسلام فـي بيئة اخرى فانه ينشيء ـ بقيمه الثابتة ـ شكلا آخر من أشكـال الحضارة يستخدم فيه موجودات هذه البيئـة وامكانياتهـا الفعلية وينميها ٠

وهكذا لا يتوقف قيـام الحضارة ـ بطريقـة الاسلام ومنهجه ـ على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي ٠ وان كانت الحضارة حـين تقوم تستخدم هـذا التقدم ـ عند وجوده ـ وتدفعـه الى الامام دفعا ، وترفـع

أهدافه . كما انها تنشئه انشاء حين لا يكون ، وتكفل نمـوه واطراده .. ولكنها تظل في كـــل حال قائمة على اصولهـا المستقلة . ويبقى للمجتمع الاسلامي طابعـه الخاص ، وتركيبه العضوي ، الناشئان عن نقطة انطلاقه الاولى ، التـــي يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية ..

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » ...

(البقرة : ١٣٨)

*

التصور الإسلامي والثقافة

العبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الاول لركن الاسلام الاول ، فهي المدلول المطابق لشهادة ان لا اله الا الله ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة ان محمدا رسول الله ـ كما جاء في فصل : « لا اله الا الله منهج حياة » ..

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده الها .. عقيدة وعبادة وشريعة .. فلا يعتقد المسلم ان « الالوهية » تكون لأحد غير الله ـ سبحانه ـ ولا يعتقد ان « العبادة » تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد ان « الحاكمية » تكون لاحد من عباده .. كما جاء في ذلك الفصل أيضا .

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية ، وفي هذا الفصل نوضح مدلول « الحاكمية » وعلاقته « بالثقافة » .

ان مدلول « الحاكمية » في التصور الاسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده . والتحاكم اليها وحدها . والحكم بها دون سواها .. ان مدلول « الشريعة » في الاسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية ، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه واوضاعه . ان هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول « الشريعة » والتصور الاسلامي !

ان « شريعة الله » تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية .. وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد ، واصول الحكم ، وأصول الاخلاق ، وأصول السلوك ، وأصول المعرفة أيضا .

يتمثل في الاعتقاد والتصور ـ بكل مقومات هذا التصور ـ تصور حقيقة الالوهية ، وحقيقة الكون ، غيبه وشهوده ، وحقيقة الحياة ، غيبها وشهودها ، وحقيقة الانسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها ، وتعامل الانسان معها .

ويتمثل في الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والاصول التي تقوم عليها ، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده .

ويتمثل في التشريعات القانونية ، التي تنظم هذه الاوضاع . وهو ما يطلق عليه اسم « الشريعة » غالبا بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الاسلامي .

ويتمثل في قواعد الاخلاق والسلوك ، في القيم والموازين التي تسود المجتمع ، ويقوم بها الاشخاص والاشياء والاحداث في الحياة الاجتماعية .

ثم .. يتمثل في «المعرفة » بكل جوانبها ، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة .

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله ، كالتلقي في الاحكام الشرعية ـ بمدلولها الضيق المتداول ـ سواء بسواء ..

والامر في « الحاكمية » ـ في مدلولها المختص بالحكم والقانون ـ قد يكون الان مفهوما بعد الذي سقناه بشأنه من تقريرات .

والامر في قواعد الاخلاق والسلوك ، وفي القيم والموازين

التي تسود المجتمع ، قد يكون مفهوما كذلك الى حد ما ! اذ أن القيم والموازين وقواعد الاخلاق والسلوك التي تسود في مجتمع ما ترجع مباشرة الى التصور الاعتقادي السائد في هذا المجتمع ، وتتلقى من ذات المصدر الذي تتلقى منه حقائق العقيدة التي يتكيف بها ذلك التصور ٠

اما الامر الذي قد يكون غريبا ـ حتى على قراء مثل هذهالبحوث الاسلامية ! ـ فهو الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني الى التصور الاسلامي والى مصدره الرباني ٠

وفي النشاط الفني صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار ان النشاط الفني كله ، وهو تعبير انساني عن تصورات الانسان وانفعالاته واستجاباته ، وعن صورة الوجود والحياة في نفس انسانية ٠٠ وهذه كلها يحكمها ـ بل ينشئها ـ في النفس المسلمة تصورها الاسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ، وعلاقتها بباريء الكون والنفس والحياة ! وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الانسان ، ومركزه في الكون ، وغاية وجوده ، ووظيفته ، وقيم حياته ٠٠ وكلها متضمنة في التصور الاسلامي ، الذي ليس هو مجرد تصور فكري ٠ انما هو تصور اعتقادي حي موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث في الكيان الانساني (١) ٠

فأما قضية النشاط الفكري ، وضرورة رد هذا النشاط الى التصور الاسلامي ومصدره الرباني ، تحقيقا للعبودية الكاملة لله وحده ، فهذه هي القضية التي تقتضي منا بيانا كاملا لانها قد تكون بالقياس الى قراء هذا البيان

---

(١) كتاب « منهج الفن الاسلامي » لمحمد قطب ٠

ـ حتى المسلمين منهم الدين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده ـ غريبة أو غير مطروقة !

***

ان المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة ، أو التصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، أو يختص بالمبادىء والاصول في النظام السياسي ، أو الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الانساني وبحركة التاريخ الانساني ٠٠ الا من ذلك المصدر الرباني ، ولا يتلقى في هذا كله الا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة ٠

ولكن المسلم يملك ان يتلقى في العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والاحياء ، والفلك ، والطب، والصناعة، والزراعة ، وطرق الادارة ـ من الناحية الفنية الادارية البحتة ـ وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال ـ من الجانب الفني ـ الى آخر ما يشبه هذا النشاط ٠٠ يملك ان يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم ٠٠ وان كان الاصل في المجتمع المسلم حين يقوم ، ان يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها ، باعتبارها فروض كفاية، يجب ان يتخصص فيها أفراد منه ٠ والا أثم المجتمع كله اذا لم يوفر هذه الكفايات ، ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج ٠٠ ولكن الى أن يتحقق هذا فان للفرد المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم ، وان ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم، وان يشغل فيها المسلم وغير المسلم ٠٠ لانها من الامور الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انتم

اعلم بأمور دنياكم » ·· وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والانسان ، وغاية وجوده ، وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله ، بخالق الوجود كله ، ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والانظمة والاوضاع التي تنظم حياته افرادا وجماعات · ولا تتعلق بالاخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع ·· ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته ، او ارتداده الى الجاهلية !

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الانساني كله افرادا او مجتمعات ، وهو المتعلق بالنظرة الى « نفس » الانسان والى « حركة تاريخه » ، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ، ونشأة الحياة ، ونشأة هذا الانسان ذاته ـ من ناحية ما وراء الطبيعة ـ (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب ·· الخ) فالشأن فيه ، شأن الشرائع القانونية والمبادىء والاصول التي تنظم حياته ونشاطه ، مرتبط بالعقيدة ارتباطا مباشرا ، فلا يجوز للمسلم ان يتلقى فيه الا عن مسلم ، يثق في دينه وتقواه ، ويعلم عنه انه يتلقى في هذا كله عن الله ·· والمهم ان يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته ، وان يعلم ان هذا مقتضى عبوديته لله وحده ، أو مقتضى شهادته : أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ·

انه قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي · ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها ، انما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح ويقوّم هذه الانحرافات البشرية ، بردّها الى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الاسلامي ، وحقائق العقيدة الاسلامية ·

ان اتجاهات « الفلسفة » بجملتها ، واتجاهات « تفسير التاريخ الانساني » بجملتها ، واتجاهات « علم النفس »

بجملتها ـ عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها ـ ومباحث « الاخلاق » بجملتها ، واتجاهات دراسة « الاديان المقارنة » بجملتها ، واتجاهات « التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها ـ فيما عدا المشاهدات والاحصائيات والمعلومات المباشرة ، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها ـ ‥ ان هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي ـ اي غير الاسلامي ـ قديما وحديثا ، متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية ، وقائمة على هذه التصورات ، ومعظمها ـ ان لم يكن كلها ـ يتضمن في أصوله المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الديني جملة ، وللتصور الاسلامي على وجه خاص !

والامر في هذه الالوان من النشاط الفكري ـ والعلمي ! ـ ليس كالامر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والاحياء والطب ، وما اليها ـ ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية ، دون ان تجاوز هذه الحدود الى التفسير الفلسفي في صورة من صوره ، وذلك كتجاوز الداروينية مثلا لمجال اثبات المشاهدات وترتيبها في علم الاحياء ، الى مجال القول ـ بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك الا الرغبة والهوى ـ انه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعي لتفسير نشأة الحياة وتطورها ٠

ان لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون ، وفي المستوى الذي تبدو فيه محاولات البشر في هذه المجالات هزيلة ومضحكة ‥ فضلا عن أن الامر يتعلق تعلقا مباشرا بالعقيدة ، وبالعبودية الكاملة لله وحده ٠

ان حكاية أن « الثقافة تراث انساني » لا وطن له ولا جنس ولا دين ‥ هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم

البحتة وتطبيقاتها العلمية - دون أن تجاوز هذه المنطقة الى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ، ولا الى التفسيرات الفلسفية لنفس الانسان ونشاطه وتاريخه ، ولا الى الفن والادب والتعبيرات الشعورية جميعا . ولكنها فيما وراء ذلك احدى مصايد اليهود العالمية ، التي يهمها تمييع الحواجز كلها - بما في ذلك ، بل في أول ذلك حواجز العقيدة والتصور - لكي ينفذ اليهود الى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني ، وفي أوله نشاطهم الربوي ، الذي ينتهي الى جعل حصيلة كد البشرية كلها ، تؤول الى اصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود !

ولكن الاسلام يعتبر أن هناك - فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الاسلامية القائمة على قواعد التصور الاسلامي ، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها الى قاعدة واحدة .. قاعدة اقامة الفكر البشري الها لا يرجع الى الله في ميزانه .. والثقافة الاسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الانساني ، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما .

ويكفي ان نعلم ان الاتجاه التجريبي ، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الاوربية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء في أوربا ، وانما نشأ في الجامعات الاسلامية في الاندلس والمشرق ، مستمدا أصوله من التصور الاسلامي وتوجيهاته ، الى الكون وطبيعته الواقعية ، ومدخراته وأقواته .. ثم استقلت النهضة العلمية في أوربا بهذا المنهج ، واستمرت تنميه وترقيه ، بينما ركد وترك نهائيا في العالم الاسلامي

بسبب بعد هذا العالم تدريجيا عن الاسلام ، بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني ••• ثم قطعت اوربا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله ، في اثناء شرودها عن الكنيسة ، التي كانت تستطيل على الناس ـ بغيا وعدوا ـ باسم الله ! (١)

وكذلك أصبح نتاج الفكر الاوربي بجملته ـ شأنه شأن انتاج الفكر الجاهلي في جميع الازمان في جميع البقاع ـ شيئا آخر ، ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الاسلامي • ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلا للتصور الاسلامي •• ووجب على المسلم أن يرجع الى مقومات تصوره وحدها ، والا يأخذ الا من المصدر الرباني ان استطاع بنفسه ، والا فلا يأخذ الا عن مسلم تقي ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه الى الاخذ عنه •

***

ان حكاية فصل « العلم » عن « صاحب العلم » لا يعرفها الاسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الانسان الى الوجود والحياة والنشاط الانساني ، والاوضاع ، والقيم ، والاخلاق ، والعادات ، وسائر ما يتعلق بنفس الانسان ونشاطه من هذه النواحي •

ان الاسلام يتسامح في ان يتلقى المسلم عن غير المسلم ، أو عن غير التقي من المسلمين ، في علم الكيمياء البحتة ،

---

(١) راجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : المستقبل لهذا الدين •

أو الطبيعة ، او الفلك ، او الطب ، او الصناعة ، او الزراعة ، أو الأعمال الادارية والكتابية.. وأمثالها . وذلك في الحالات التي لا يجد فيها مسلما تقيا يأخذ عنه في هذا كله ، كما هو واقع من يسمون انفسهم المسلمين اليوم ، الناشىء من بعدهم عن دينهم ومنهجهم وعن التصور الاسلامي لمقتضيات الخلافة في الارض ـ باذن الله ـ وما يلزم لهذه الخلافة من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة .. ولكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته ، ولا مقومات تصوره ، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه ، ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج سياسته ، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره ... الخ ، من مصادر غير اسلامية ، ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله .

ان الذي يكتب هذا الكلام انسان عاش يقرأ اربعين سنة كاملة . كان عمله الاول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الانسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد الى مصادر عقيدته وتصوره . فاذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا الى جانب ذلك الرصيد الضخم ـ وما كان يمكن ان يكون الا كذلك ـ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فانما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها ... وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن ان يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي !!!

ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأيا لي ابديه .. ان الامر اكبر من ان يفتى فيه بالرأي .. انه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه ، انما هو

قول الله ـ سبحانه ـ وقـول نبيه صلى الله عليه وسلم ٠٠ نحكّمه في هذا الشأن ، ونرجع فيه الى الله والرسول ، كما يرجع الذين آمنوا الى الله والرسول فيما يختلفون فيه ٠

يقول الله ـ سبحانه ـ عن الهدف النهائـي لليهـود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة :

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفّارا ، حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، ان اللـه علـى كل شيء قدير » ٠٠٠ (البقرة : ١٠٩) ٠

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصـارى حتى تتبـع ملتهم ٠ قل : ان هدى الله هـو الهدى ٠ ولئـن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولـي ولا نصير » ٠٠٠ (البقرة : ١٢٠) ٠

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » ٠٠٠ (آل عمران : ١٠٠)٠

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الحافظ ابو يعلى عن حماد عن الشعبـي عن جابـر ـ رضـي الله عنهم ـ :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فانهم لن يهـدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما أن تصدقوا بباطل ، واما أن تكذبـوا بحق ، وانه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حلّ له الا أن يتبعني » ٠

وحين يتحدد الهـدف النهائي لليهود والنصـارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطـع الذي يقـرره اللـه سبحانه ، يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصـدرون عن

نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الاسلامية ، أو التاريخ الاسلامي ، أو التوجيه في نظام المجتمع المسلم ، أو في سياسته أو اقتصاده ، أو يقصدون الى خير ، أو الى هدى ، أو الى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس ـ بعد تقرير الله سبحانه ـ انما هم الغافلون !

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : ان هدى الله هو الهدى » ... المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع اليه في هذه الشؤون ، فليس وراء هدى الله الا الضلال ، وليس في غيره هدى ، كما تفيد صيغة القصر الواردة في النص : « قل : ان هدى الله هو الهدى » ... ولا سبيل الى الشك في مدلول هذا النص ، ولا الى تأويله كذلك !

كذلك يرد الامر القاطع بالاعراض عمن يتولى عن ذكر الله ، ويقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا ، وينص على ان مثل هذا لا يعلم الا ظنا ، والمسلم منهي عن اتباع الظن ، وأنه لايعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فهو لا يعلم علما صحيحا .

« فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى » ...

(النجم : ١٩ ـ ٢٠)

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » ...

(الروم : ٧)

والذي يغفل عن ذكر الله ، ولا يريد الا الحياة الدنيا ـ وهو شأن جميع « العلماء ! » اليوم ـ لا يعلم الا هذا الظاهر ، وليس هذا هو « العلم » الذي يثق المسلم في صاحبه فيتلقى

عنه في كل شأنه ، انما يجوز أن يتلقى عنه في حدود علمه المادي البحت ، ولا يتلقى منه تفسيرا ولا تأويلا عاما للحياة ، او النفس ، او متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذي تشير اليه الآيات القرآنية وتثني عليه ، كقوله تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها في غير مواضعها ؟ فهذا السؤال التقريري وارد في آية هذا نصها الكامل :

« ام من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر اولو الالباب » ... (الزمر:٩)

فهذا القانت آناء الليل ، ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. هو هذا الذي يعلم .. وهذا هو العلم .. الذي تشير اليه الآية ، العلم الذي يهدي الى الله وتقواه .. لا العلم الذي يفسد الفطر فتلحد في الله !

ان العلم ليس مقصورا على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع .. فالعلم يشتمل كل شيء ، ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الارض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع .. ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الايمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ويثني على أهله .. ان هناك ارتباطا بين القاعدة الايمانية وعلم الفلك ، وعلم الاحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم طبقات الارض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ، والقوانين الحيوية . .انها كلها تؤدي الى الله ، حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الاوربي في النهضة العلمية ـ مع الاسف ـ بسبب تلك الملابسات النكدة التي قامت في التاريخ الاوربي خاصة ، بين

المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة ! ثم ترك آثاره العميقة فيمناهج الفكر الاوربي كلها ، وفي طبيعة التفكير الاوربي ، وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لاصل التصور الديني جملة ـ لا لاصل التصور الكنسي وحده ولا للكنيسة وحدها ـ في كل ما أنتجه الفكر الاوربي ، في كل حقل من حقول المعرفة ، سواء كانت فلسفة ميتافيزيقية ، أو كانت بحوثا علمية بحتة لا علاقة لها ـ في الظاهر ـ بالموضوع الديني ! (١)

واذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي ، ونتاج هذا الفكر في كل حقول المعرفة ، يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لاصل التصور الديني جملة ، فان تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الاسلامي خاصة ، لانه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة ، ويتحرى في حالات كثيرة ـ في خطة متعمدة ـ تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الاسلامية ، ثم تحطيم الاسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته ·

ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي ، وعلى نتاجه كذلك ، في الدراسات الاسلامية ·· ومن ثم تجب الحيطة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة ـ التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقّيها من مصادرها الغربية ـ من أية ظلال فلسفية تتعلق بها ، لان هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جملة ، وللتصور الاسلامي بصفة خاصة · وأي قدر منها يكفي لتسميم الينبوع الاسلامي الصافي ···

---

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب « المستقبل لهذا الدين » ·

جنسية المسلم وعقيدته

جاء الاسلام الى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج ، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات ، ولحقيقة الجهة التي تتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات .

جاء الاسلام ليرد الانسان الى ربه ، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه، كما تلقّى منها وجوده وحياته ، والتي يرجع اليها بروابطه ووشائجه ، كما أنه من ارادتها صدر واليها يعود .

جاء ليقرر ان هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله فاذا انبتّت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وابناءهم أو اخوانهم او عشيرتهم » ... (المجادلة : ٢٢) .

وان هناك حزبا واحدا لله لا يتعدد ، وأحزابا أخرى كلها للشيطان وللطاغوت :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » ... (النساء : ٧٦) .

وأن هناك طريقا واحدا يصل الى الله وكل طريق آخر لا يؤدي اليه :

« وان هذا صراطي مستقيمـــا فاتبعوه ، ولا تتبعـــوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » ... (الانعام : ١٥١)

وأن هناك نظاما واحدا هو النظام الاسلامي وما عـــداه من النظم فهو جاهلية :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمـا لقوم يوقنون » (المائدة : ٥٠)

وان هناك شريعة واحـــدة هي شريعة الله ومـــا عداها فهو هوى :

« ثم جعلنا على شريعة مـــن الامر فاتبعهـــا ولا تتبـع أهواء الذين لا يعلمون » ... (الجاثية : ١٨)

وأن هناك حقا واحدا لا يتعدد ، ومـــا عـــداه فهـو الضلال :

« فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » ..
(يونس : ٣٢)

وان هناك دارا واحدة هي دار الاســلام ، تلك التـــي تقوم فيها الدولة المسلمة ، فتهيمن عليها شريعة اللـــه ، وتقام فيها حدوده ، ويتولى المسلمـــون فيها بعضهم بعضا . ومـا عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها امـــا القتال ، واما المهادنة على عهد أمان . ولكنها ليست دار اسلام ، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهـــم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم اوليـاء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهـــم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكـــم في الدّين فعليكـم

النصر ـ الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ والله بما تعملون بصير • والذين كفروا بعضهم اولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير • والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم • والذين آمنوا من بعد وجاهروا جاهدوا معكم فأولئك منكم...»

(الأنفال : ٧٢ ـ ٧٥)

بهذه النصاعة الكاملة، وبهذا الجزم القاطع جاء الاسلام.. جاء ليرفع الانسان ويخلصه من وشائج الارض والطين ، ومن وشائج اللحم والدم ـ وهي من وشائج الارض والطين ـ فلا وطن للمسلم الا الذي تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله ، ولا جنسية للمسلم الا عقيدته التي تجعله عضوا في « الامة المسلمة » في « دار الاسلام » ، ولا قرابة للمسلم الا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله ، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله ...

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته ، ما لم تنعقد الآصرة الاولى في الخالق ، فتتصل من ثم بالرحم :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام » ...

(النساء : ١)

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة ، فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي يعطينا المثل في جلاه :

روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال : دعـــا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبدالله بن عبدالله بن أبي قال: ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال ما يقول أبـــي ؟ ـ بأبـــي أنت وأمي ـ قال : يقول : لئن رجعنـــا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل • فقال : فقد صدق والله يا رسول الله • انت والله الاعز وهو الاذل • اما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وان أهل يثرب ليعلمون ما بها احد ابر بوالده منـــي • ولئن كان يرضي الله ورسوله ان آتيهمـــا برأسه لآتيهما به • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا » •• فلما قدموا المدينة قام عبدالله بن عبدالله بن أبي عـــلى بابهـــا بالسيف لابيه ، قال : انت القائل : لان رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تأويـــه أبدا الا باذن من الله ورسوله • فقال : يا للخزرج ! ابني يمنعني بيتي ! يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ! فقال : والله لا يأويه ابدا الا باذن منه • فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخلن الا باذن من الله ورسوله • فاتوا النبـــي ـ صلى اللـــه عليه وسلم ـ فأخبروه فقال : « اذهبوا اليه فقولوا لـــه : خلـــه ومسكنه » • فأتوه فقال : أما اذ جاء أمر النبي صـــلى اللـــه عليه وسلم فنعم ••

فاذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهـــم اخوة ، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر : « انمـــا المؤمنون اخوة » ••• على سبيل القصر والتوكيد :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهـــم أولياء بعض » •••

(الانفال : ٧٢)

وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد الى الاجيال المتعاقبة ، وتربط أول هذه الامة بآخرها ، وآخرها بأولها ، برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين :

« والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبّون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » ٠
(الحشر : ٩ ـ ١٠)

***

ويضرب الله الامثال للمسلمين بالرهط الكريم من الانبياء الذين سبقوهم في موكب الايمان الضارب في شعاب الزمان :

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب ان ابني من أهلي ، وان وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ٠ قال : يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، اني أعظك أن تكون من الجاهلين ٠ قال : رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » ٠٠٠ (هود : ٤٥ ـ ٤٧)

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : اني جاعلك للناس اماما ٠ قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » ٠٠٠ (البقرة : ١٢٤)

« واذ قال ابراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق

أهله من الثمرات .. من آمن منهم بالله واليـوم الآخر .. قال : ومن كفر فأمتّعه قليلا ثم اضطره الـى عذاب النار وبئس المصير ... (البقرة : ١٢٦)

ويعتزل ابراهيم أباه وأهلـه حـين يرى منهم الاصرار على الضلال :

« وأعتزلكم وما تدعون مـن دون الله وأدعو ربي عسى الا" أكون بدعاء ربي شقيا » ... (مريم : ٤٨)

ويحكي الله عن ابراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة :

« قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه ، اذ قالوا لقومهم : انّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبـدا حتى تؤمنوا بالله وحده » . (الممتحنة : ٤)

والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهـم وأرضهم ليخلصوا لله بدينهم ، ويفرّوا الى ربهم بعقيدتهم ، حين عـز عليهم أن يجدوا لها مكانا في الوطن والاهل والعشيرة :

« انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هـدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والارض ، لـن ندعو من دونه إلهاً ، لقـد قلنا اذاً شططا . هؤلاء قومنـا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ واذ اعتزلتموهم وما يعبدون ــ الا الله ــ فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمتـه ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » ... (الكهف : ١٣ ــ ١٦)

وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبـين زوجيهما حين تفترق العقيدة :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط

كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..
(التحريم : ١٠)

وامرأة فرعون على الضفة الاخرى :
« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت : رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجّني من فرعون وعمله ، ونجّني من القوم الظالمين » ...
(التحريم : ١١)

وهكذا تتعدد الامثال في جميع الوشائج والروابط .. وشيجة الابوة في قصة نوح ، ووشيجة البنوة والوطن في قصة ابراهيم ، ووشيجة الاهل والعشيرة والوطن جميعا في قصة اصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية في قصص امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون ..
وهكذا يمضي الموكب الكريم في تصوره لحقيقة الروابط والوشائج .. حتى تجيء الامة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الامثال والنماذج والتجارب ، فتمضي على النهج الرباني للامة المؤمنة ، وتفترق العشيرة الواحدة ، ويفترق البيت الواحد ، حين تفترق العقيدة ، وحيث تنبت الوشيجة الاولى، ويقول الله سبحانه في صفة المؤمنين قوله الكريم :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، اولئك حزب الله ، الا ان حزب الله هم المفلحون » ...
(المجادلة : ٢٢)

وحين انبتّت وشيجة القرابة بين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين عمه أبي لهب ، وابن عمه عمرو بن هشام

(أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر ·· حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والانصار ، فاذا هم اهل واخوة ، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب واخوانهم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي · وتوارت عصبية القبيلة ، وعصبية الجنس ، وعصبية الارض · وقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « دعوها فانها منتنة » ·· وقال لهم : « ليس منّا من دعا الى عصبية ، وليس منّا من قاتل على عصبية ، وليس منّا من مات على عصبية » ·· فانتهى أمر هذا النتن ·· نتن عصبية النسب · وماتت هذه النعرة ·· نعرة الجنس ، واختفت تلك اللوثة ·· لوثة القوم ، واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، بعيدا عن نتن اللحم والدم ، ولوثة الطين والارض ·· منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الارض ، انما عاد وطنه هو « دار الاسلام » الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها ، الدار التي يأوي اليها ويدافع عنها ، ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها ·· وهي « دار الاسلام » لكل من يدين بالاسلام عقيدة ويرتضي شريعته شريعة · وكذلك لكل من يرتضي شريعة الاسلام نظاما ـ ولو لم يكن مسلما ـ كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون في « دار الاسلام » ·· والارض التي لا يهيمن فيها الاسلام ولا تحكم فيها شريعته هي « دار الحرب » بالقياس الى المسلم ، والى الذمي المعاهد كذلك ·· يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده ، وفيها قرابته من النسب وصهره ، وفيها أمواله ومنافعه ·

وكذلك حارب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة وهي مسقط رأسه ، وفيها عشيرته وأهله ، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها · فلم تصبح دار اسلام

له ولأمته الا حين دانت للاسلام وطبّقت فيها شريعته .

***

هذا هو الاسلام .. هذا هو وحده .. فالاسلام ليس كلمة تقال باللسان ، ولا ميلادا في أرض عليها لافتة اسلامية وعنوان اسلامي ! ولا وراثة مولد في بيت ابواه مسلمان .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .
(النساء : ٦٥)

هذا هو وحده الاسلام ، وهذه هي وحدها دار الاسلام .. لا الارض ولا الجنس ، ولا النسب ولا الصهر ، ولا القبيلة ، ولا العشيرة .

لقد أطلق الاسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا الى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم .. قيد البهيمة .. ليرتفعوا في عليين .

وطن المسلم الذي يحن اليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض ، وجنسية المسلم التي يعرف بها ليست جنسية حكم ، وعشيرة المسلم التي يأوي اليها ويدفع عنها ليست قرابة دم ، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم ، وانتصار المسلم الذي يهفوا اليه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش . انما هو كما قال الله عنه :

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبّح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » ...
(سورة النصر)

انه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات . والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لا لأي هدف من الاهداف ،

والذياد عن « دار الاسلام » بشروطها تلك لا أية دار ، والتجرد بعد هذا كله لله ، لا لمغنم ولا لسمعة ، ولا حمية لارض أو قوم ، أو ذود عن أهل أو ولد ، الا لحمايتهم من الفتنــة عن دين الله :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول اللــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، اي ذلك فــي سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ...

وفي هذا وحده تكون الشهادة لا في أية حرب لاي هدف غير هذا الهدف الواحد .. لله ..

وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته ، وتصدّه عن دينه، وتعطل عمل شريعته ، فهي « دار حرب » ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته .. وكل أرض تقــوم فيهــا عقيدته وتعمل فيها شريعته ، فهي « دار اسلام » ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ، ولا قوم ولا تجارة .

الوطن : دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة مــن الله .. هذا هو معنى الوطن اللائق « بالانسان » . والجنسية: عقيدة ومنهاج حياة . وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين .

ان عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللــون والارض عصبية صغيرة متخلفة .. عصبية جاهليــة عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي ، وسماها رسول اللــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « منتنة » بهذا الوصف الــذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز .

ولما ادعى اليهود أنهم شعب اللــه المختار بجنسهــم وقومهم ردّ الله عليهم هذه الدعوى ، ورد ميزان القيــم الى

الايمان وحده على توالي الاجيال ، وتغاير الاقوام والاجناس والاوطان :

« وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا · قل : بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين · قولوا : آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط · وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون · فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم في شقاق ، فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم · صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة · ونحن له عابدون » ···
(البقرة : ١٣٦ ـ ١٣٧)

فأما شعب الله المختار حقا فهو الامة المسلمة التي تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الاجناس والاقوام والالوان والاوطان : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ···

الامة التي يكون من الرعيل الاول فيها أبو بكر العربي ، وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، واخوانهم الكرام · والتي تتوالى اجيالها على هذا النسق الرائع ·· الجنسية فيها هي العقيدة ، والوطن فيها هو دار الاسلام ، والحاكم فيها هو الله ، والدستور فيها هو القرآن ·

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة الى الله ، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب اليه صور

الشرك الخفية : الشرك بالارض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة، تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كفة، ويضع الايمان ومقتضياته في كفة اخرى ، ويدع للناس الخيار :

« قل : ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره ‥ والله لا يهدي القوم الفاسقين » ... (التوبة : ٢٤)

كذلك لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة الى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الاسلام ، وفي صفة دار الحرب ودار الاسلام ‥ فمن هنا يؤتى الكثير منهم في تصوراته ويقينه ‥ انه لا اسلام في أرض لا يحكمها الاسلام ، ولا تقوم فيها شريعته ، ولا دار اسلام الا التي يهيمن عليها الاسلام بمنهجه وقانونه ، وليس وراء الايمان الا الكفر ، وليس دون الاسلام الا الجاهلية ‥ وليس بعد الحق الا الضلال ‥

نقلة بعيدة

هناك حقيقة أولية ، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تماما ونحن نقدم الاسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء ·· هذه الحقيقة تنبثق من طبيعة الاسلام ذاته ، وتنبع من تاريخه ·

ان الاسلام تصور مستقل للوجود والحياة ، تصور كامل ذو خصائص متميزة ، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها ، بكل مقوماتها وارتباطاتها ، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة ·

هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديما وحديثا · وقد يلتقي مع هذه التصورات في جزئيات عرضية جانبية ، ولكن الاصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرفته البشرية من نظائرها ·

ووظيفة الاسلام الاولى هي أن ينشىء حياة انسانية توافق هذا التصور ، وتمثله في صورة واقعية ، وأن يقيم في الارض نظاما يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله ، وهو يخرج هذه الامة المسلمة لتمثله وتقوم عليه ، وهو ـ سبحانه ـ يقول :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ···

(آل عمران : ١١٠)

ويقول في صفة هذه الامة : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ... (الحج : ٤١)

***

وليست وظيفة الاسلام اذن ان يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الارض ، ولا الاوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان .. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل .. فالجاهلية هي الجاهلية ، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الالهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الالهي .. الاسلام وهو الاسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية الى الاسلام !

الجاهلية هي عبودية الناس للناس : بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله ، كائنة ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع ..!

والاسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد !

هذه الحقيقة المنبثقة من طبيعة الاسلام ، وطبيعة دوره في الارض ، هي التي يجب أن نقدم بها الاسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء !

ان الاسلام لا يقبل انصاف الحلول مع الجاهلية . لا من ناحية التصور ، ولا من ناحية الاوضاع المنبثقة من هذا التصور .. فاما اسلام واما جاهلية . وليس هنالك وضع

آخر نصفه اسلام ونصفه جاهلية ، يقبله الاسلام ويرضاه ..
فنظرة الاسلام واضحة في ان الحق واحد لا يتعـــدد ، وان ما عدا هذا الحق فهو الضلال . وهمـــا غير قابلـين للتلبس والامتزاج . وانه اما حكم الله واما حكم الجاهلية ، وامـــا شريعة الله ، واما الهوى .. والآيات القرآنيـــة في هـــذا المعنى متواترة كثيرة :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبـــع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك » ..
(المائدة : ٤٩)

« فلذلك فادع ، واستقـم كمـــا أمرت ، ولا تتبـــع أهواءهم » . (الشورى : ١٥)

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتّبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هـــدى من الله؟ ان اللـــه لا يهدي القوم الظالمين » .. (القصص : ٥٠)

« ثم جعلناك على شريعة مـــن الامر فاتبعهـــا ولا تتبـــع أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئـــا ، وان الظالمين بعضهم اولياء بعض . والله ولي المتقين » ..
(الجاثية : ١٨)

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن احسن من الله حكمـــا لقوم يوقنون » .. (المائـــدة : ٥٠)

فهما امران لا ثالث لهما . اما الاستجابة لله والرسول، واما اتباع الهوى . اما حكم الله واما حكم الجاهلية . امـــا الحكم بما أنزل الله كله واما الفتنة عما أنزل الله .. وليس بعد هذا التوكيد الصريح الجازم من اللـــه سبحانه مجـــال للجدال او للمحال ..

وظيفة الاسلام اذن هي اقصاء الجاهليـــة من قيـادة البشرية ، وتولي هذه القيادة على منهجه الخـــاص ، المستقل الملامح ، الاصيل الخصائص .. يريد بهذه القيـادة الرشيدة الخير للبشرية واليسر . الخير الـــذي ينشأ من رد البشريـة الى خالقها ، واليسر الذي ينشأ من التنسيـــق بين حركـة البشرية ، وتولي هذه القيادة على منهجه الخـاص ، المستقـل ترتفع الى المستوى الكريم الذي أراده الله لها ، وتخلص مـن حكم الهوى . أو كما قال ربعي بن عامر حـين سأله رستم قائد الفرس : ما الذي جاء بكم؟ فكان جوابـه : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ؟ ومن جور الأديـان الى عدل الاسلام » .

لم يجيء الاسلام اذن ليربت على شهـــوات الناس الممثلة في تصوراتهم وأنظمتهم وأوضاعهم وعاداتهم وتقاليدهم .. سواء منها ما عاصر مجيء الاسلام ، أو ما تخوض البشرية فيه الان ، في الشرق أو في الغرب سواء .. انما جـاء ليلغـــي هذا كله الغاء ، وينسخه نسخا ، ويقيم الحياة البشرية على أسسه الخاصة . جاء لينشيء الحياة انشاء . لينشيء حيـاة تنبثق منه انبثاقا ، وترتبط بمحوره ارتباطـــا . وقد تشابه جزئيات منه جزئيات في الحياة التي يعيشها النـــاس فـــي الجاهلية . ولكنها ليست هي ، وليست منهــا . انما هي مجرد مصادفة هذا التشابه الظاهري الجانبي فـــي الفروع . أما أصل الشجرة فهو مختلف تمامـــا . تلك شجرة تطلعها حكمة الله ، وهذه شجرة تطلعها أهواء البشر :

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والـذي خبث لا يخرج الا نكدا » .. (الاعراف : ٥٨)

وهذه الجاهلية خبثت قديما وخبثت حديثا .. يختلف

حبثها في مظهره وشكله ، ولكنه واحـــد في مغرسه وأصله انه هوى البشر الجهال المغرضين ، الذين لا يملكون التخلص من جهلهم وغرضهم ، ومصلحة أفراد منهم أو طبقـــات أو أمم أو اجناس يغلبونها على العدل والحق والخير • حتـــى تجيء شريعة الله فتنسخ هذا كله ، وتشرّع للناس جميعـــا تشريعا لا يشوبه جهل البشر ، ولا يلوّثه هواهم ، ولا تميـــل به مصلحة فريق منهم •

ولأن هذا هو الفارق الاصيل بـــين طبيعة منهـــج الله ومناهج الناس ، فانه يستحيل الالتقاء بينهما في نظام واحد ، ويستحيل التوفيق بينهما في وضع واحد • ويستحيل تلفيق منهج نصفه من هنا ونصفه من هناك • وكما أن الله لا يغفر أن يشرك به • فكذلك هو لا يقبل منهجا مع منهجه •• هذه كتلك سواء بسواء • لان هذه هي تلك على وجه اليقين •

هذه الحقيقة ينبغي ان تكون من القوة والوضوح فـــي نفوسنا ونحن نقدم الاسلام للناس بحيث لا نتلجلج في الادلاء بها ولا نتلعثم ، ولا ندع الناس في شك منها ، ولا نتركهم حتى يستيقنوا ان الاســـلام حين يفيئون اليـــه سيبدّل حياتهـم تبديلا •• سيبدل تصوراتهم عن الحياة كلهـــا • كما سيبدل اوضاعهم كذلك • سيبدلها ليعطيهم خيرا منها بما لا يقاس • سيبدلها ليرفع تصوراتهم ويرفع أوضاعهم ، ويجلعهـم أقرب الى المستوى الكريم اللائق بحياة الانسان • ولن يبقي لهـــم شيئا من أوضاع الجاهلية الهابطـــة التي هم فيها ، اللهم الا الجزئيـــات التي يتصادف ان يكون لها من جزئيـات النظـام الاسلامي شبيه • وحتى هذه لن تكون هـــي بعينها ، لأنهـــا ستكون مشدودة الى أصـــل كبير يختلف اختلافا بيّنا عـــن الاصل الذي هم مشدودون اليه الان : أصل الجاهلية النكـد الخبيث ! وهو في الوقت ذاته لن يسلبهم شيئـــا من المعرفة

« العلمية البحتة » بل سيدفعها قوية الى الامام ..

يجب ألا ندع الناس حتى يدركوا ان الاسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية ، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية .. بشتى اسمائها وشياتها وراياتها جميعا .. وانما هو الاسلام فقط ! الاسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل ، وأوضاعه المستقلة . الاسلام الذي يحقق للبشرية خيرا مما تحلم به كله من وراء هذه الاوضاع . الاسلام الرفيع النظيف المتناسق الجميل الصادر مباشرة من الله العلي الكبير .

***

وحين ندرك حقيقة الاسلام على هذا النحو ، فان هذا الادراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الاسلام ، في ثقة وقوة ، وفي عطف كذلك ورحمة .. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل . وعطف الذي يرى شقوة البشر ، وهو يعرف كيف يسعدهم . ورحمة الذي يرى ضلال الناس وهويعرف أين الهدى الذي ليس بعده هدى !

لن نتدسس اليهم بالاسلام تدسسا . ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة .. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم .. هذه الاوضاع التي انتم فيها خبث ، والله يريد أن يطيّبكم .. هذه الحياة التي تحيونها دون ، والله يريد أن يرفعكم .. هذا الذي انتم فيه شقوة وبؤس ونكد ، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم .. والاسلام سيغير تصوراتكم واوضاعكم وقيمكم ، وسيرفعكم الى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها ، والى

أوضاع اخرى تحتقرون معها أوضاعكم في مشارق الارض ومغاربها ، والى قيم اخرى تشمئزون معها من قيمكم السائدة في الارض جميعا .. واذا كنتم انتم ـ لشقوتكم ـ لم تروا صورة واقعية للحياة الاسلامية ، لان أعداءكم ـ أعداء هذا الدين ـ يتكتلون للحيلولة دون قيام هذه الحياة ، ودون تجسد هذه الصورة ، فنحن قد رأيناها ـ والحمد لله ممثلة في ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا المبدع للمستقبل الذي لا نشك في مجيئه !

***

هكذا ينبغي ان نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الاسلام . لان هذه هي الحقيقة ، ولان هذه هي الصورة التي خاطب الاسلام الناس بها أول مرة . سواء في الجزيرة العربية أم في فارس أم في الروم . أم في أي مكان خاطب الناس فيه .

نظر اليهم من عل ، لان هذه هي الحقيقة . وخاطبهم بلغة الحب والعطف لانها حقيقة كذلك في طبيعته . وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لان هذه هي طريقته .. ولم يقل لهم ابدا : انه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم الا بتعديلات طفيفة ! او انه يشبه نظمهم وأوضاعهم التي الفوها .. كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم اليهم الاسلام .. مرة تحت عنوان : « ديمقراطية الاسلام » ! ومرة تحت عنوان « اشتراكية الاسلام » ! ومرة بأن الاوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالمهم لا تحتاج من الاسلام الا لتعديلات طفيفة !!! الى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات !

كلا . ان الامر مختلف جدا . والانتقال من هذه

الجاهلية التي تعم وجه الارض الى الاسلام نقلة واسعة بعيدة ، وصورة الحياة الاسلامية مغايرة تماما لصور الحياة الجاهلية قديما وحديثا . وهذه الشقوة التي تعانيها البشرية لن يرفعها عنها تغييرات طفيفة في جزئيات النظم والاوضاع. ولن ينجي البشر منها الا تلك النقلة الواسعة البعيدة . النقلة من مناهج الخلق الى منهج الخالق ، ومن نظم البشر الى نظام رب البشر ، ومن أحكام العبيد الى حكم رب العبيد .

هذه حقيقة . وحقيقة مثلها أن نجهر بها ونصدع ، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس .

وقد يكره الناس هذا في أول الامر ، وقد يجفلون منه ويشفقون . ولكن الناس كذلك كرهوا مثل هذا وأشفقوا منه في أول العهد بالدعوة الى الاسلام . أجفلوا وآذاهم أن يحقر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصوراتهم ، ويعيب آلهتهم ، وينكر اوضاعهم ، ويعتزل عاداتهم وتقاليدهم ، ويتخذ لنفسه وللقلة المؤمنة معه اوضاعا وقيما وتقاليد غير اوضاع الجاهلية وقيمها وتقاليدها .

ثم ماذا ؟ ثم فاؤوا الى الحق الذي لم يعجبهم اول مرة ، والذي أجفلوا منه : « كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة » .. (المدثر : ٥٠ ـ ٥١) والذي حاربوه ودافعوه بكل ما يملكون من قوة وحيلة ، والذي عذبوا أهله عذابا شديدا وهم ضعاف في مكة ، ثم قاتلوهم قتالا عنيدا وهم اقوياء في المدينة ..

ولم تكن الدعوة في أول عهدها في وضع أقوى ولا أفضل منها الان .. كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية ، وكانت محصورة في شعاب مكة ، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها ، وكانت غريبة في زمانها في العالم كله . وكانت تحف

بها امبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها . ولكنها مع هذا كله كانت قوية ، كما هي اليوم قوية ، وكما هي غدا قوية .. ان عناصر القوة الحقيقية كامنة في طبيعة هذه العقيدة ذاتها . ومن ثم فهي تملك ان تعمل في أسوأ الظروف وأشدها حرجا . انها تكمن في الحق البسيط الواضح الذي تقوم عليه . وفي تناسقها مع الفطرة التي لا تملك أن تقاوم سلطانها طويلا ، وفي قدرتها على قيادة البشرية صعدا في طريق التقدم ، في أية مرحلة كانت البشرية من التأخر أو التقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والعقلي .. كما انها تكمن في صراحتها هذه وهي تواجه الجاهلية بكل قواها المادية فلا تخرم حرفا واحدا من أصولها ، ولا تربت على شهوات الجاهلية ، ولا تتدسس اليها تدسسا . انما تصدع بالحق صدعا مع اشعار الناس بأنها خير ورحمة وبركة ..

والله الذي خلق البشر يعلم طبيعة تكوينهم ومداخل قلوبهم ويعلم كيف تستجيب حين تصدع بالحق صدعا . في صراحة وقوة ، وبلا تلعثم ولا وصوصة !

ان النفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة الى حياة . وذلك قد يكون أيسر عليها من التعديلات الجزئية في أحيان كثيرة .. والانتقال الكامل من نظام حياة الى نظام آخر أعلى منه واكمل وأنظف ، انتقال له ما يبرره في منطق النفس .. ولكن ما الذي يبرر الانتقال من نظام الجاهلية الى نظام الاسلام ، اذا كان النظام الاسلامي لا يزيد الا تغييرا طفيفا هنا ، وتعديلا طفيفا هناك ؟ ان البقاء على النظام المألوف أقرب الى المنطق . لانه على الاقل نظام قائم ، قابل للاصلاح والتعديل ، فلا ضرورة لطرحه ، والانتقال الى

نظام غير قائم ولا مطبق ، ما دام أنــه شبيه به في معظم خصائصه !

***

كذلك نجد بعض الذين يتحدثون عن الاسلام يقدمونه للناس كأنه متهم يحاولون هم دفع التهمة عنه ! ومن بين ما يدفعون به أن الانظمة الحاضرة تفعل كذا وكذا مما تعيب على الاسلام مثله ، وأن الاسلام لم يصنع شيئا ـ في هذه الامور ـ الا ما تصنعه « الحضارات » الحديثة بعد ألف وأربعمئة عام !

وهان ذلك دفاعا ! وساء ذلك دفاعا !

ان الاسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية والتصرفات النكدة التي تنبعث منها · وهذه « الحضارات » التي تبهر الكثيرين وتهزم أرواحهم ليست سوى نظم جاهلية في صميمها · وهي نظم معيبة مهلهلة هابطة حين تقاس الى الاسلام ·· ولا عبرة بأن حال أهلها بخير من حال السكان في ما يسمى الوطن الاسلامي أو « العالم الاسلامي » ! فهؤلاء صاروا الى هذا البؤس بتركهم للاسلام لا لانهم مسلمون ·· وحجة الاسلام التي يدلي بها للناس : انه خير منها بما لا يقاس ، وانه جاء ليغيّرها لا ليقرها ، وليرفع البشرية عن وهدتها لا ليبارك تمرغها في هذا الوحل الذي يبدو في ثوب « الحضارة » ··

فلا تبلغ بنا الهزيمة ان نتلمس للاسلام مشابهات في بعض الانظمة القائمة ، وفي بعض المذاهب القائمة ، وفي بعض الافكار القائمة · فنحن نرفض هذه الانظمة في الشرق أو في الغرب سواء ·· اننا نرفضها كلها لانها منحطة ومتخلفة بالقياس الى ما يريد الاسلام أن يبلغ بالبشرية اليه ·

وحين نخاطب الناس بهذه الحقيقة ، ونقدم لهم القاعدة العقيدية للتصور الاسلامي الشامل ، يكون لديهم في أعماق فطرتهم ما يبرر الانتقال من تصور الى تصور ، ومن وضع الى وضع . ولكننا لا نخاطبهم بحجة مقنعة حين نقول لهم : تعالوا من نظام قائم فعلا الى نظام آخر غير مطبق ، لا يغير في نظامكم القائم الا قليلا . وحجته اليكم انكم تفعلون في هذا الامر وذاك مثلما يفعل هو ، ولا يكلفكم الا تغيير القليل من عاداتكم وأوضاعكم وشهواتكم ، وسيبقي لكم كل ما تحرصون عليها منها ولا يمسه مسا خفيفا !!

هذا الذي يبدو سهلا في ظاهره ، ليس مغريا في طبيعته، فضلا على انه ليس هو الحقيقة .. فالحقيقة ان الاسلام يبدل التصورات والمشاعر ، كما يبدل النظم والاوضاع ، كما يبدل الشرائع والقوانين تبديلا اساسيا لا يمت بصلة الى قاعدة الحياة الجاهلية ، التي تحياها البشرية .. ويكفي انه ينقلهم جملة وتفصيلا من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ..

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ..

« ومن كفر فان الله غني عن العالمين » ..

والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وايمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية واسلام . وهذا ما ينبغي ان يكون واضحا .. ان الناس ليسوا مسلمين ـ كما يدّعون ـ وهم يحيون حياة الجاهلية . واذا كان فيهم من يحب ان يخدع نفسه أو يخدع الآخرين ، فيعتقد أن الاسلام يمكن ان يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك . ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئا .. ليس هذا اسلاما ، وليس هؤلاء مسلمين . والدعوة اليوم انما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين الى الاسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد .

ونحن لا ندعو الناس الى الاســلام لننال منهم أجرا ٠ ولا نريد علوا في الارض ولا فسادا ٠ ولا نريد شيئا خاصا لانفسنا اطلاقا ، وحسابنا واجرنا ليس على الناس ٠ انما نحن ندعو الناس الى الاسلام لاننا نحبهم ونريد لهم الخير ٠٠ مهما آذونا ٠٠ لان هذه هي طبيعة الداعية الى الاسلام ، وهذه هي دوافعه ٠٠ ومن ثم يجب ان يعلموا منا حقيقة الاسلام ، وحقيقة التكاليف التي سيطلبها اليهم ، في مقابل الخير العميق الذي يحمله لهم ٠ كما يجب ان يعرفوا رأينا في حقيقة ما هم عليه من الجاهلية ٠٠ انها الجاهلية وليست في شيء من الاسلام ٠ انها « الهوى » ما دام أنها ليست هي « الشريعة » ٠ انها « الضلال » ما دام أنها ليست هي الحق ٠٠ فماذا بعد الحق الا الضلال !

***

وليس في اسلامنا ما نخجل منه ، وما نضطر للدفاع عنه ، وليس فيه ما نتدسس به للناس تدسسا ، أو ما نتلعثم في الجهر به على حقيقته ٠٠ ان الهزيمة الروحية امام الغرب وامام الشرق وامام أوضاع الجاهلية هنا وهناك هي التي تجعل بعض الناس ٠٠ « المسلمين » ٠٠ يتلمس للاسلام موافقات جزئية من النظم البشرية ، أو يتلمس من أعمال « الحضارة » الجاهلية ما يسند به اعمال الاسلام وقضاءه في بعض الامور ٠٠

انه اذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار فليس هو الذي يقدم الاسلام للناس ٠ وانما هو ذاك الذي يحيا في هذه الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائص والعيوب ، ويريد ان يتلمس المبررات للجاهلية ٠ وهؤلاء هم الذين يهاجمون الإسلام ويلجئون بعض محبيه الذين يجهلون

حقيقته الى الدفاع عنه ، كأنه متهم مضطر للدفاع عن نفسه في قفص الاتهام !

بعض هؤلاء كانوا يواجهوننا ـ نحن القلائل المنتسبين الى الاسلام ـ في امريكا في السنوات التي قضيتها هناك ـ وكان بعضنا يتخذ موقف الدفاع والتبرير ٠٠ وكنت على العكس اتخذ موقف المهاجم للجاهلية الغربية ٠٠ سواء في معتقداتها الدينية المهلهلة ٠ أو في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية المؤذية ٠٠ هذه التصورات عن الاقانيم وعن الخطيئة وعن الفداء ، وهي لا تستقيم في عقل ولا ضمير ٠٠ وهذه الرأسمالية باحتكارها ورباها وما فيها من بشاعة كالحة ٠٠ وهذه الفردية الاثرة التي ينعدم معها التكافل الا تحت مطارق القانون ٠٠ وهذا التصور المادي التافه الجاف للحياة ٠٠ وحرية البهائم التي يسمونها « حرية الاختلاط » ٠٠ وسوق الرقيق التي يسمونها « حرية المرأة » ٠٠ والسخف والحرج والتكلف المضاد لواقع الحياة في نظم الزواج والطلاق ، والتفريق العنصري الحادّ الخبيث ٠٠ ثم ٠٠ ما في الاسلام من منطق وسمو وانسانية وبشاشة، وتطلع الى آفاق تطلع البشرية دونها ولا تبلغها ٠ ومن مواجهة الواقع في الوقت ذاته ومعالجته معالجة تقوم على قواعد الفطرة الانسانية السليمة ٠

وكانت هذه حقائق نواجهها في واقع الحياة الغربية ٠٠ وهي حقائق كانت تخجل اصحابها حين تعرض في ضوء الاسلام ٠٠ ولكن ناسا ـ يدّعون الاسلام ـ ينهزمون امام ذلك النتن الذي تعيش فيه الجاهلية ، حتى ليتلمسون للاسلام مشابهات في هذا الركاب المضطرب البائس في الغرب ٠ وفي تلك الشناعة المادية البشعة في الشرق أيضا !

***

ولست في حاجة بعد هـذا الى ان أقول : اننا نحن الذين نقدم الاسلام للناس ، ليس لنا ان نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها ، ولا في شيء من أوضاعهـا ، ولا في شيء من تقاليدها ٠ مهما يشتد ضغطها علينا ٠

ان وظيفتنا الاولى هي احلال التصـورات الاسلاميـة والتقاليد الاسلامية في مكان هذه الجاهلية ٠ ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات في اول الطريق ، كما قد يخيل الى البعض منـا ٠٠ ان هـذا معناه اعلان الهزيمـة منذ اول الطريق ٠٠

ان ضغط التصورات الاجتماعية السائـدة ، والتقاليـد الاجتماعية الشائعة ، ضغط ساحق عنيف ، وبخاصة في دنيا المرأة ٠ والمرأة المسلمة تواجه في هذه الجاهلية ضغطا قاسيا مشؤوما حقا ٠٠ ولكن لا بد مما ليس منه بد ٠ لا بد ان نثبت اولا ، ولا بد ان نستعلي ثانيا ، ولا بد ان 'نري الجاهليـة حقيقة الدرك الذي هـي فيه بالقيـاس الى الآفاق العليـا المشرقة للحياة الاسلامية التي نريدها ٠

ولن يكون هذا بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الان وننزوي عنهـا وننعزل ٠٠ كلا ، انمـا هي المخالطة مع التميز ، والاخذ والعطـاء مع الترفع ، والصدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالايمـان في تواضع ٠ والامتلاء بعد هذا كله بالحقيقة الواقعة : وهـي أننا نعيش في وسط جاهلية ، وأننـا أهدى طريقـا من هـذه الجاهلية ، وانها نقلة بعيدة واسعة ، هذه النقلة من الجاهلية الى الاسلام ، وانها هوة فاصلة لا يقام فوقهـا معبر للالتقـاء في منتصف الطريق ، ولكن لينتقـل عليه أهل الجاهليـة الى الاسلام ، سواء كـانوا ممن يعيشون فيمـا يسمى الوطـن الاسلامي ، ويزعمون أنهم مسلمون ، أو كانوا يعيشون في غير

الوطن « الاسلامي » ، وليخرجوا من الظلمات الـــى النور ، ولينجوا من هذه الشقوة التي هم فيها ، وينعمــوا بالخـير الذي ذقناه نحن الذين عرفنا الاسلام وحاولنا ان نعيش بــه .. والا فلنقل ما أمر الله سبحانه رسول صلى اللـه عليـه وسلم ان يقوله :

« لكم دينكم ولي دين » ...   (الكافرون : ٦)

⁂

استعلاءُ الإيمَان

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » ..
(آل عمران : ١٣٩)

اول ما يتبادر الى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال .. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة ، بكل ملابساتها الكثيرة .

انه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي ان يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للاشياء والاحداث والقيم والاشخاص سواء .

انه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب ان تستقر عليها نفس المؤمن ازاء كل شيء ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد ، الاستعلاء بالايمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الايمان .

الاستعلاء على قوى الارض الحائدة عن منهج الايمان . وعلى قيم الارض التي لم تنبثق من أصل الايمان . وعلى تقاليد الارض التي لم يصغها الايمان ، وعلى قوانين الارض التي لم يشرعها الايمان ، وعلى أوضاع الارض التي لم ينشئها الايمان .

الاستعلاء .. مع ضعف القوة ، وقلة العدد ، وفقر المال ، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء .

الاستعلاء الذي لا يتهاوى امام قوة باغية ، ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل ، ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الايمان ٠

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد الا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الالهي العظيم ٠

***

والاستعلاء بالايمان ليس مجرد عزمة مفردة ، ولا نخوة دافعة ، ولا حماسة فائرة ، انما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود ٠ الحق الباقي وراء منطق القوة ، وتصور البيئة ، واصطلاح المجتمع ، وتعارف الناس ، لانه موصول بالله الحي الذي لا يموت ٠

ان للمجتمع منطقه السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل ٠٠ على من ليس يحتمي منه بركن ركين ، وعلى من يواجهه بلا سند متين ٠٠ وللتصورات السائدة والافكار الشائعة ايحاؤهما الذي يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات والافكار ، والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى ٠

والذي يقف في وجه المجتمع ، ومنطقه السائد ، وعرفه العام ، وقيمه واعتباراته ، وأفكاره وتصوراته ، وانحرافاته ونزواته ٠٠ يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ، ما لم يكن يستند الى سند أقوى من الناس ، وأثبت من الارض ، وأكرم من الحياة ٠

والله لا يترك المؤمن وحيدا يواجه الضغط ، وينوء به

الثقل ، ويهدئه الوهن والحزن ، ومن ثم يجيء هذا التوجيه :
« ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » •
(آل عمران : ١٣٩)

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن :
هما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس في هذا المقام •• يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات ، الاستعلاء الذي ينظر من عل الى القوى الطاغية ، والقيم السائدة ، والتصورات الشائعة ، والاعتبارات والاوضاع والتقاليد والعادات ، والجماهير المتجمعة على الضلال •

ان المؤمن هو الاعلى •• الاعلى سندا ومصدرا •• فما تكون الارض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة في الارض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى ، والى الله يرجع ، وعلى منهجه يسير ؟

وهو الاعلى ادراكا وتصورا لحقيقة الوجود •• فالايمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الاسلام هو اكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى • وحين تقاس هذه الصورة الى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب ، سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديما وحديثا ، وما انتهت اليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة ، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة •• حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة ، الى ذلك الركام وهذه التعسفات ، تتجلى عظمة العقيدة الاسلامية كما لم تتجل قط • وما من شك ان الذين يعرفون هذه المعرفة هم الاعلون على كل من هناك (١) •

---

(١) يراجع فصل « تيه وركام » في كتاب : خصائص التصور الاسلامي ومقوماته •

وهو الاعلى تصورا للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والاحداث والاشياء والاشخاص • فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله ، بصفاته كما جاء بها الاسلام ، ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الارض الصغير • هذه العقيدة من شأنها ان تمنح المؤمن تصورا للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي البشر ، الذين لا يدركون الا ما تحت اقدامهم • ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد • بل في الامة الواحدة • بل في النفس الواحدة من حين الى حين •

وهو الاعلى ضميرا وشعورا ، وخلقا وسلوكا •• فان عقيدته في الله ذي الاسماء الحسنى والصفات المثلى ، هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى ، والعمل الصالح والخلافة الراشدة • فضلا على ايحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة • الجزاء الذي تهون امامه متاعب الدنيا وآلامها جميعا • ويطمئن اليه ضمير المؤمن ، ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب •

وهو الاعلى شريعة ونظاما • وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديما وحديثا ، ويقيسه الى شريعته ونظامه ، فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الاطفال وخبط العميان ، الى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل • وسينظر الى البشرية الضالة من عل في عطف واشفاق على بؤسها وشقوتها ، ولا يجد في نفسه الا الاستعلاء على الشقوة والضلال •

***

وهكذا كان المسلمون الاوائل يقفون امام المظاهر الجوفاء ، والقوى المتنفجة ، والاعتبارات التي كانت تتعبد

الناس في الجاهلية .. والجاهلية ليست فترة من الزمان ، انما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الاسلام ، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء ..

هكذا وقف المغيرة ابن شعبة امام صور الجاهلية واوضاعها وقيمها وتصوراتها في معسكر رستم قائد الفرس المشهور :

« عن ابي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة الى القنطرة ، فعبرها الى أهل فارس أجلسوه ، واستأذنوا رستم في اجازته ، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم في زيهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو اربعمائة خطوة) لا يصل الى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة ، واقبل المغيرة وله اربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه (١) ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم . انا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا ، الا ان يكون محاربا لصاحبه ، فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني ان بعضكم ارباب بعض ، وان هذا الامر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني . اليوم علمت ان امركم مضمحل ، وانكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

كذلك وقف ربعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية :

---

(١) مغثوه : صرعوه .

« أرسل سعد بن ابي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا الى رستم ، قائد الجيوش الفارسية واميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير (١)، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الامتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : اني لم آتكم ، وانما جئتكم حين دعوتموني ، فان تركتموني هكذا والا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام .

***

وتتبدل الاحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الاعلى . وينظر الى غالبه من عل ما دام مؤمنا . ويستيقن انها فترة وتمضي ، وان للايمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فانه لا يحني لها رأسا . ان الناس كلهم يموتون اما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الارض الى الجنة ، وغالبه يغادرها الى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم :

« لا يغرّنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل

---

(١) النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابي : البسط المخملة .

ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد • لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها • نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار » ••• (آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٨)

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره بأنه الاعلى ، وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون • وينظر اليهم من عل في كرامة واعتزاز ، وفي رحمة كذلك وعطف ، ورغبة في هدايتهم الى الخير الذي معه ، ورفعهم الى الافق الذي يعيش فيه •

ويضج الباطل ويصخب ، ويرفع صوته وينفش ريشه ، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشي على الابصار والبصائر ، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم ، وفجر كالح لئيم •• وينظر المؤمن من عل الى الباطل المنتفش ، والى الجموع المخدوعة ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا ينقص اصراره على الحق الذي معه ، وثباته على النهج الذي يتبعه ، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين •

ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة ، ويمضي مع نزواته الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين ، حاسبا انه يستمتع وينطلق من الاغلال والقيود • وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال ، ولا يبقى الا المشرع الآسن ، والا الوحل والطين •• وينظر المؤمن من عل الى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين • وهو مفرد وحيد ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا تراوده نفسه ان يخلع رداءه النظيف الطاهر ، وينغمس في الحمأة ، وهو الاعلى بمتعة الايمان ولذة اليقين •

ويقف المؤمن قابضا على دينه كالقابض على الجمر في المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة ، وعن القيم العليا ،

وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل ·· ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصوراته ، ضاحكين من قيمه ·· فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل الى الساخرين والهازئين والضاحكين ، وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الايمان العريق الوضيء ، في الطريق اللاحب الطويل ·· نوح عليه السلام··

« ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون » ···
(هود : ٢٨)

وهو يرى نهاية الموكب الوضيء ، ونهاية القافلة البائسة في قوله تعالى :

« ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ·· واذا مروا بهم يتغامزون · واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين · واذا رأوهم قالوا : ان هؤلاء لضالون ـ وما أرسلوا عليهم حافظين ـ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون · على الأرائك ينظرون ، هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون!»··؟
(المطففين : ٢٩ ـ ٣٦)

وقديما قص علينا القرآن الكريم قولة الكافرين للمؤمنين :

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » ··
(مريم : ٧٣)

اي الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله ؟ اي الفريقين ؟ النضر بن الحارث ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان ابن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما

يدعو اليه محمد خيرا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر ، الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر ، وهم يجتمعون في بيت متواضع كدار الارقم ، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة ، والمجد والجاه والسلطان ؟!

انه منطق الارض ، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان • وانها لحكمة الله ان تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الاغراء ، لا قربى من حاكم ، ولا اعتزاز بسلطان ، ولا هتاف بلذة ، ولا دغدغة لغريزة • وانما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد •• ليقبل عليها من يقبل ، وهو على يقين من نفسه انه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ، ولينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع ، ومن يشتهي الزينة والابهة ، ومن يطلب المال والمتاع ، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزنا حين تخف في ميزان الله •

ان المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس ، انما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه •• انه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق ، انما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل •• انه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود ، انما تنبثق في ضميره من ينابيع الوجود •• فأنّى يجد في نفسه وهناً أو يجد في قلبه حزنا ، وهو موصول برب الناس وميزان الحقوينابيع الوجود ؟

انه على الحق •• فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ وليكن للضلال سلطانه ، وليكن له هيله وهيلمانه ، ولتكن معه جموعه وجماهيره •• ان هذا لا يغير من الحق شيئا ، انه

على الحق وليس بعد الحق الا الضلال ، ولن يختـــار مؤمن الضلال على الحق ـ وهو مؤمن ـ ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والاحوال ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب . ربنا انك جامع الناس ليـوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد » .

(آل عمران : ٨ ـ ٩)

هـذا هو الطريق

« والسماء ذات البروج • واليوم الموعـــود • وشاهد ومشهود • قتل أصحاب الأخـدود • النار ذات الوقود • اذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود • ومـا نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد • الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد • ان الذيـــن فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنـم ولهم عذاب الحريق • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير • ان بطش ربـك لشديد • انه هو يبدىء ويعيـد • وهو الغفـور الودود • ذو العرش المجيد • فعال لما يريد ••• »

ان قصة أصحاب الاخدود ـ كمـــا وردت فـــي سورة البروج ـ حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون الى الله في كل ارض وفي كل جيل • فالقرآن بايرادها في هذا الاسلوب مع مقدمتهـــا والتعقيبـــات عليهـــا ، والتقريرات والتوجيهـات المصاحبة لها •• كان يخط بها خطوطا عميقة في تصور طبيعة الدعوة الى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع ـ وهو أوسع رقعة من الارض ، وأبعـد مدى من الحياة الدنيا ـ وكان يرسم للمؤمنين معـــالم الطريق ، ويعدّ نفوسهم لتلقي اي من هـذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور •

انها قصة فئة آمنت بربهـا ، واستعلنت حقيقة ايمانها • ثم تعرضت للفتنة من أعداء جباريـن بطاشيـن مستهتريـن

بحق « الانسان » في حرية الاعتقاد بالحق والايمان بالله العزيز الحميد ، وبكرامة الانسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها ، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الايمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت ·

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الارض وجواذبها جميعا ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها ·

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيّرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة · وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار · يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون ·جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار ، والاناسي الكرام يتحولون وقودا وترابا · وكلما ألقي فتى أو فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل او شيخ ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار ، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة ، وعربد السعار المجنون بالدماء والاشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة ، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليقتات ، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت الى ذلك الاوج السامي الرفيع ، الذي

تشرف به البشرية في جميع الاجيال والعصور ٠

في حساب الارض يبدو ان الطغيان قد انتصر على الايمان ٠ وان هذا الايمان الذي بلغ تلك الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية ٠٠ لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الايمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث ، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ اولئك الطغاة في الارض بجريمتهم البشعة ، كما اخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط ٠ او كما اخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر ٠

ففي حساب الارض تبدو هذه الخاتمة اسيفة اليمة !

أفهكذا ينتهي الامر ، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت الى ذروة الايمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الاخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التي ارتكست الى هذه الحمأة ، ناجية ؟

حساب الارض يحيك في الصدر شيء امام هذه الخاتمة الاسيفة !

ولكن القرآن يعلّم المؤمنين شيئا آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة اخرى ، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها ، وبمجال المعركة التي يخوضونها ٠

ان الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ٠٠ ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ٠٠ وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة ٠ والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة ٠ فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة ٠

ان القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة ، وان السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الايمان . وان النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الالم ، وانتصار الايمان على الفتنة .. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والالم ، وانتصرت على جواذب الارض والحياة ، وانتصرت على الفتنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الاعصار .. وهذا هو الانتصار ..

ان الناس جميعا يموتون ، وتختلف الاسباب . ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار ، ولا يرتفعون هذا الارتفاع ، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق الى هذه الآفاق .. انما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون الناس في المجد ، المجد في الملأ الاعلى ، وفي دنيا الناس ايضا ، اذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الاجيال بعد الاجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين ان ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لايمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الارواح بعد سيطرتهم على الاجساد ؟

انه معنى كريم جدا ، ومعنى كبير جدا ، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الارض ، ربحوه وهم يجدون مس النار ، فتحترق أجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

ثم ان مجال المعركة ليس هو الارض وحدها ، وليس هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا هم الناس

في جيل من الاجيال • ان الملأ الاعلى يشارك في احداث الارض ويشهدها ويشهد عليها ، ويزنها بميزان غير ميزان الارض في جيل من أجيالها ، وغير ميزان الارض في اجيالها جميعا • والملأ الاعلى يضم من الارواح الكريمة اضعاف اضعاف ما تضم الارض من الناس •• وما من شك ان ثناء الملأ الاعلى وتكريمه اكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الارض وتقديرهم على الاطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة • وهي المجال الاصيل الذي يلحق به مجال الارض ، ولا ينفصل عنه ، لا في الحقيقة الواقعة ، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة •

فالمعركة اذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد ، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الارض حكم غير صحيح ، لانه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد •

***

النظرة الاولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للانسان العجول • والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها ، لانها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الايماني الصحيح •

ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاء على الايمان والطاعة ، والصبر على الابتلاء ، والانتصار على فتن الحياة •• هو طمأنينة القلب :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله • الا بذكر الله تطمئن القلوب » ••• (الرعد : ٢٨)

وهو الرضوان والود من الرحمن :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحـات سيجعل لهم الرحمن ودا » (مريم : ٩٦) ٠

وهو الذكر في الملأ الاعلى :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ٠ فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال عبدي ؟فيقولون : حمدك واسترجع ٠ فيقول : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسمّوه بيت الحمد » ٠٠٠ (أخرجه الترمذي)

وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ٠ فاذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ٠ فان اقترب الي شبرا اقتربت اليه ذراعا ، وان اقترب الي ذراعا اقتربت منه باعا ، وان أتاني مشيا أتيته هرولة »

(أخرجه الشيخان)

وهو اشتغال الملأ الاعلى بأمر المؤمنين في الارض :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ٠ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ٠ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ٠٠٠ » (غافر : ٧)

وهو الحياة عند الله للشهداء :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ٠ فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ يستبشرون بنعمة من الله وفضل

وان الله لا يضيع أجر المؤمنين ·· » (آل عمران : ١٦٩ — ١٧١) ·

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والاملاء لهم في الارض والامهال الـــى حين ·· وان كان أحيانا قد أخذ بعضهم في الدنيا ·· ولكن التركيز كلـــه على الآخرة في الجزء الاخير :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد · متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » ·· (آل عمران : ١٩٦ — ١٩٧)

« ولا تحسبن الله غافلا عمـــا يعمل الظالمـــون · انما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الابصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء » ·· (ابراهيم : ٤٢ — ٤٣)
« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون · يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون · خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة · ذلك اليـــوم الـــذي كانوا يوعدون ·· » (المعارج : ٤٢ — ٤٤)

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الاعلى ، واتصلت الدنيا بالآخرة ، ولم تعـــد الارض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والايمان والطغيان · ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف ، ولا موعد الفصل فـــي هذا الصراع ·· كما أن الحياة وكل ما يتعلق بهـــا من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان ، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان ·

انفسح المجـــال في المكان ، وانفسح المجال في الزمان ، وانفسح المجـــال في القيم والموازين ، واتسعت آفـــاق النفس المؤمنة ، وكبرت اهتماماتهـــا ، فصغرت الارض ومـــا عليها ، والحياة الدنيا وما يتعلق بهـــا ، وكبر المؤمن بمقـــدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيـــوات ، وكانت قصـــة أصحاب

الاخدود في القمة في انشاء هـذا التصور الايماني الواسع الشامل الكبير الكريم ·

***

هنالك اشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الاخدود وسورة البروج ، حول طبيعة الدعوة الى الله ، وموقف الداعية امام كل احتمال ·

لقد شهدت تاريخ الدعوة الى الله نماذج منوعة من نهايات في الارض مختلفة للدعوات ··

شهد مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ، وقوم لوط ، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد ، مجرد النجاة · ولم يذكر القرآن للناجين دورا بعد ذلك في الارض والحياة · وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحيانا ان يعجّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا ، أما الجزاء الاوفى فهو مرصود لهم هناك ·

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده ، ونجاة موسى وقومه ، مع التمكين للقوم في الارض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم · وان لم يرتقوا قط الى الاستقامة الكاملة ، والى اقامة دين الله في الارض منهجا للحياة شاملا ·· وهذا نموذج غير النماذج الاولى ·

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والايمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتصار المؤمنين انتصارا كاملا ، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصارا عجيبا · وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمنا على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط ، من قبل ولا من بعد ·

وشهد ـ كما رأينا ـ نموذج اصحاب الاخدود ..

وشهد نماذج أخرى أقل ظهورا في سجـــل التاريخ الايماني في القديم والحديث . وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون .

ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حـادث الاخدود ، الى جانب النماذج الاخرى . القريب منها والبعيد ..

لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون ، ولا يؤخذ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنـين ـ أصحاب دعوة الله ـ أنهم قد يدعون الى نهاية كهذه النهاية في طريقهم الى الله . وأن ليس لهم من الامر شيء ، انمـا أمرهم وأمر العقيدة الى الله !

ان عليهم أن يؤدوا واجبهم ، ثم يذهبوا . وواجبهم ان يختاروا الله ، وان يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعلوا بالايمان على الفتنة وأن يصدقـوا الله في العمل والنية . ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم ، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء . وينتهي بهم الى نهاية من تلك النهايات التي عرفهـا تاريخ الايمان ، أو الى غيرها مما يعلمه هو ويراه .

انهم أجراء عند الله . أينما وحيثما وكيفما أرادهم ان يعملوا ، عملوا وقبضوا الاجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهـم أن تتجه الدعوة الى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الامـر لا شأن الاجير !

وهم يقبضون الدفعة الاولى طمأنينة في القلب ، ورفعة في الشعور ، وجمالا في التصور ، وانطلاقـا من الاوهـاق والجواذب ، وتحررا مـن الخوف والقلق ، في كل حال من الاحوال .

وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الاعــلى وذكرا وكرامة ، وهم بعد في هذه الارض الصغيرة ·

ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرةحسابا يسيرا ونعيما كبيرا ·

ومع كل دفعة ما هو أكبر منهــا جميعا · رضوان الله ، وأنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستارا لقدرته ، يفعل بهم في الارض ما يشاء ·

***

وهكذا انتهت التربيـــة القرآنية بالفئـــة المختارة مــن المسلمين في الصدر الاول الى هذا التطور ، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم · فاخرجوا انفسهم من الامر البتة ، وعملوا اجراء عند صاحب الامر ورضوا خيرة الله عــلى أي وضع وعلى أي حال ·

وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية ، وتوجه القلوب والانظار الى الجنة ، والى الصبر على الــدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء ·

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى عمارا وأمه وأباه ـ رضي الله عنهم ـ يعذبون العذاب الشديد في مكة ، فما يزيد على ان يقول : « صبرا آل ياسر · موعدكم الجنة » ··

وعن خبّاب بن الارتّ ـ رضي الله عنه ـ قال : شكونا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد برده في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ أو تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين · ويمشط بأمشاط الحديد مــا دون لحمه وعظمـــه · ما يبعده

ذلك عن دينه • والله ليتممن الله تعالى هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، فلا يخاف الا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » •• (أخرجه البخاري)

***

ان لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال ، ومدبر هذا الكون كله ، المطلع على أوله وآخره ، المنسق لاحداثه وروابطه • هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور ، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل •

وفي بعض الاحيان يكشف لنا ـ بعد اجيال وقرون ـ عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته • ولعلهم كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يا رب يقع هذا ؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن • لانه يعرف ابتداء ان هناك حكمة وراء كل قدر ، ولان سعة المجال في تصوره ، وبعدالمدى في الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال • فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان ••

لقد كان القرآن ينشىء قلوبا يعدها لحمل الامانة ، وهذه القلوب كان يجب ان تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع ـ وهي تبذل كل شيء ، وتحتمل كل شيء ـ الى شيء في هذه الارض ، ولا تنظر الا الى الآخرة ، ولا ترجو الا رضوان الله ، قلوبا مستعدة لقطع رحلة الارض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت • بلا جزا في هذه الارض قريب ، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة ، وغلبة الاسلام وظهور المسلمين ، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الاولين !

حتى اذا وجدت هذه القلوب ، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الارض الا ان تعطي بلا مقابل ـ اي مقابل ـ وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للفصل بين الحق والباطل . حتى اذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاها النصر في الارض ، وائتمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الالهي وهي أهل لاداء الامانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع الى شيء من المغنم في الارض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء الا رضاه .

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر ، وذكر فيها المغانم ، وذكر فيها أخذ المشركين في الارض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة .. بعد ذلك .. وبعد ان اصبحت هذه الامور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لان مشيئة الله اقتضت ان تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الانسانية ، تقرره في صورة عملية محددة تراها الاجيال .. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام ، انما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الان !

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة الى الله ، في كل أرض وفي كل جيل . فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش ، وان تثبّت خطى الذين يريدون ان يقطعوا الطريق الى نهايته ، كيفما كانت هذه النهاية . ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون . فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والاشلاء ، وبالعرق والدماء ، الى نصر أو غلبة ، أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الارض .. ولكن اذا كان الله يريد ان يصنع بهم شيئا من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله .. لا جزاء على الآلام والتضحيات .. لا ، فالارض ليست دار جزاء .. وانما

تحقيقا لقـدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس مـن عباده يختارهم ليمضي بهم من الامر ما يشاء · وحسبهم هـذا الاختيار الكريم ، الذي تهون الى جانبه وتصغر هذه الحياة ، وكل ما يقع في رحلة الارض من سراء أو ضراء ·

***

هنالك حقيقة اخرى يشير اليها احد التعقيبات القرآنية على قصة الاخدود في قوله تعالى :

« وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ··

حقيقة ينبغي ان يتأملها المؤمنون الداعون الى الله فـي كل أرض وفي كل جيل ·

ان المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئا آخر عـلى الاطلاق · وان خصومهم لا ينقمون منهم الا الايمان ، ولا يسخطون منهم الا العقيدة ··

انها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ، ولا معركة عنصرية ·· ولو كانت شيئا من هذا لسهل وقفهـا ، وسهل حل اشكالها · ولكنها في صميمها معركة عقيدة ــ اما كفر واما ايمان ·· اما جاهلية واما اسلام !

ولقد كان كبار المشركين يعرضون عـلى رسول اللـه ــ صلى الله عليه وسلم ــ المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد ، ان يدع معركة العقيدة وان يدهن في هذا الامر ! ولو اجابهم ــ حاشاه ــ الى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الاطلاق !

انها قضية عقيدة ومعركة عقيدة ·· وهـذا ما يجب ان يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدوا لهـم · فانه لا يعاديهم

لشيء الا لهذه العقيدة « الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع !

وقد يحاول اعداء المؤمنين ان يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة ، راية اقتصادية أو سياسية او عنصرية ، كي يموّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة ، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة . فمن واجب المؤمنين الايخدعوا ، ومن واجبهم أن يدركوا ان هذا تمويه لغرض مبيت . وان الذي يغيّر راية المعركة انما يريد ان يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها ، النصر في أية صورة من الصور ، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كماوقع للمؤمنين في حادث الاخدود ، او في صورة الهيمنة ـ الناشئة من الانطلاق الروحي ـ كما حدث للجيل الاول من المسلمين .

ونحن نشهد نموذجا من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة ، وان تزور التاريخ ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستارا للاستعمار .. كلا .. انما كان الاستعمار الذي جاء متأخرا هوالستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى ! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر ، وفيهم صلاح ـ الدين الكردي ، وتوران شاه المملوكي ، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة !

« وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وصدق الله العظيم ، وكذب الموهون الخادعون !

الفهرس



مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت
من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت
إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي
أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
دفاع عن أبي هريرة
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي
الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم
الإسلام وتوزيع الثروات
الاستاذ ابراهيم البرايري
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل
الأستاذ جميل بيهم
الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة
رحلتي من الشك للإيمان
(باللغة الفرنسية)
الدكتور مصطفى محمود
كيف أرى الله
الدكتور عبد الودود شلبي
ذو النون المصري
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قال الأولون
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
حياة محمد في عشرين قصة
الأستاذ عبد التواب يوسف

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني
مناسك الحج والعمرة في ضوء
المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
ونزل القرآن
الأستاذ أحمد فراج
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك
حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة
الأستاذ عبد الله المحمود
الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام
الدكتور عبد الجليل شلبي

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا : داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - برقيا : شروق القاهرة

٢١٠

س.ق.م سيد قطب

معالم في الطريق . بيروت ،

دار الشروق ، ١٣٩٣ = ١٩٧٣ .

١٨٧ ص . ، ٢٠ سم .

